

أني إرنو



العار

ترجمة: مبارك مرابط

منشورات الجمل

رواية

أني إرنو

العار

ترجمة:

مبارك مرابط

منشورات الجمل

أني إرنو: العـــار

أني إرنو: العار، ترجمة: مبارك مرابط
الطبعة الأولى ٢٠٢٢
Annie Ernaux: La Honte, roman

منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٢١١١
الإمارات العربية المتحدة

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى

فيليب. ف (PHILIPPE.V)

اللغة لا تمثل الحقيقة، إنها طريقتنا في الوجود.

بول أوستر

«اختراع العزلة»

تقديم

«أني إرنو».. «الأنا» الحميمي و«الأنا» الجماعي

مبارك مرابط

وأنا أشتغل على ترجمة هذا النص الذي بين يديك، تبادر إلى ذهني سؤالان:

١ ـ مَنْ مِنّا لا يخبئ في قرارة الروح، وفي تجاويف الصدر والذاكرة حدثًا، أو أكثر، يغمره بالعار؟ سأجازف وأجيب: لا أحد. فكلنا نحمل معنا «عارًا» دفينًا.. حدثًا نخجل منه. قد يكون حميميًا.. ممارسةً لا يستسيغها المجتمع (عادة سرية مثلاً.. أو وصالٌ جنسي سريع وفاشل مع ابنة الجيران، أو قلق مع ابن الجيران في فترة المراهقة الأولى.. أو...).

وقد لا يكون حميميًا لكنه يطعن فينا ذلك الكبرياء المنفلت (تصرف من الأب الأمي أو سلوكِ الأم البدوية...)، أو يعمّق فينا إحساسًا بالدونية (بسبب الحي المتخلّف المنسي الذي نسكن فيه.. أو سروال أسود صار مبهم اللون من فرط ارتدائه..أو

محفظة مدرسية بالية.. أو سمة في الوجه.. أو عاهة في الأطراف أو...).

٢ ـ مَنْ مِنَ الروائيين والقاصّين والشعراء والكتاب عمومًا، تجرأ على تحويل هذا الحدث إلى عمل أدبي أو فني صادق وعميق ورصين؟ بلا شك قلّة قليلة.

والكاتبة الفرنسية «أني إرنو» من هذه القلّة القليلة. فقد نحتت من حدث كانت شاهدة عليه في طفولتها وسبب لها الكثير من العار، نصًا جميلاً رغم قساوته.. نصًا صريحًا دون السقوط في الابتذال.. نصًا عميقًا دون الانجرار إلى التعالم.

***

تفتتح «أني إرنو» مؤلفَها «العار» بمشهد قاس تصف فيه محاولة والدها قتل أمها في أحد أيام شهر حزيران ١٩٥٢. وهو مشهد لم تشر إليه الكاتبة الفرنسية قط في كتاباتها السابقة لهذا النص، وتطلب منها الأمر أربعة عقود كاملة لتستجمع ما يتيسر لها من شجاعة وتتسلح بما يكفي من جرأة لمواجهة هذا «العار»، والاقتراب من هذا الحدث المطمور في عمق الذاكرة.

ورغم أنه لا يحتل من مساحة الكتاب سوى حيز محدود جدًا (صفحتان في طبعة دار «غاليمار» ١٩٩٧)، فإن هذا المشهد الافتتاحي يعتبر النجم القطب الذي تسير على هُدَاه بقية أجزاء النص الأخرى، التي تستحضر فيها الشخصية الرئيسة/الساردة/الكاتبةكل ما عاشته من مواقف عمقت فيها الشعور بالعار من نفسها، من أسرتها.. من أصولها.. ومن محيطها الاجتماعي

برمّته. فهي تتحول إلى «عالمة حفريات» تنقّب عن كل المشاهد الأخرى المثقلة بهذا الإحساس المخجل، والمتوارية في تلافيف الذاكرة.

ينقسم نص «أني إرنو» إلى أربعة أقسام أو لنقل تجاوزًا «أربعة فصول»:

الأول: ركّز بالأساس على المشهد الافتتاحي للنص، المتمثل في محاولة والد الساردة قتل أمها، وما سبقه وتلاه من أحداث.

الثاني: وصف دقيق، بنفحة سوسيولوجية لا يخطئها أنف القراءة، لمدينة «إ» (الحرف الأول لاسم «إيفتو» التي نشأت فيها الكاتبة، والذي استحال عليها «نطقه» كاملًا في هذا النص لأن هذه البلدة مصدر عار كبير لها).

الثالث: ركّز على المدرسة الكاثوليكية الخاصة التي كانت تدرس فيها، وبسط كل القوانين والقواعد التي تحكمها، وتجربة الساردة/الشخصية الرئيسة/الكاتبة مع هذه القوانين وكيف كانت تخضع لها بكل تلقائية.

الرابع: خُصّص لسرد رحلة دينية قامت بها رفقة والدها إلى مدينة «لورد»، وهي مزار ديني شهير بفرنسا، في أغسطس من ١٩٥٢، أي بعد شهرين فقط من مشهد محاولة القتل. وفي هذه الرحلة يتعمق اليقين لدى الساردة المراهقة أن هناك عالمين، وأنها تنتمي إلى الأدنى منهما.

***

ينتمي نص «العار» إلى ما تسميه «إرنو» نفسُها ـ في الكتاب/ الحوار الذي أصدرته تحت عنوان «الكتابة باعتبارها سكينًا» ـ «الحقبةَ الثانية» من مسارها، وهي الحقبة التي مالت فيها كثيرًا إلى إضفاء «لمسة سوسيولوجية» على كتاباتها القائمة على التخييل الذاتي... كتابات اشتغلت فيها على إذابة «الأنا» في «ثنايا واقع أوسع، في ثنايا ثقافة، في ثنايا ظرف ما، في ثنايا ألم ما...» على حد قولها. وبالتالي فعندما استعادت ذلك المشهد القاسي، بعد أن طمره الإحساس بالعار لأربعة عقود، لم تستحضره كصور عنيفة أو ذكرى مؤلمة فقط، بل حاولت بـ«عينها السوسيولوجية» أن تضعه في سياقه الاجتماعي والتاريخي.

تقول «أني إرنو» في يومياتها: «لم أسعَ إلى كتابة ذاتي (...) أنا أوظفها، وأوظف الأحداث، العادية عمومًا، التي مررتُ بها، كما أوظّف المواقف التي واجهت والعواطف التي غمرتني، كمادة للاستكشاف بغاية القبض على.. أو كشف شيء يرتقي إلى مستوى الحقيقة الملموسة».

في الحقيقة، لا تغوص «أني إرنو» في «أنا»ها الشخصية الحميمية فقط، بل إنها تسبر، من خلال هذا الغوص، أعماق محيطها الاجتماعي وتعمل على تفكيك، أو على الأقل إدراك، تلك القوانين والقواعد التي تسري، بنعومة صارمة وصرامة ناعمة، في المجتمع الذي ترعرعتْ في كنفه. إنها تجمع في كتاباتها بين «الأنا» الحميمي الشديد الخصوصية و«الأنا»

الجماعي الذي يمثل طبقة اجتماعية بكاملها، بسلاسة وانسجام ممتعين.

***

عمومًا، ليست مؤلفات «أني إرنو» رواياتٍ كما هي متعارف عليها، ولا سيرة ذاتية كما اعتدناها، كما أنها ليست مجرد تأملات مشبعة بالحس السوسيولوجي. إنها كتابة تنسج من هذه الأصناف كلها نصوصًا ذات نفسي سردي ممتع وعمق معرفي رصين.. كتابة تعتبرها سكينًا تشرح بها، بجسارة الجزّار ودقة الجراح، حياتها الحميمية والأوضاع الاجتماعية في بلادها. ونكتشف في «العار»، بفضل كتابة/ سكين «إرنو»، كيف كانت حياة الناس، في فرنسا القروية والمحافظة جدًا آنذاك، تخضع لقواعد اجتماعية صارمة وقوانين دينية كاثوليكية متشددة، ولكنها كانت تعرف كيف تكون ناعمة ومقبولة ـ أو متحملة على الأقل ـ من طرف الجميع.

حاول أبي قتل أمي ذات أحدٍ من شهر حزيران. بعد الظهيرة. كنت قد ذهبتُ إلى قداس منتصف النهار إلا ربع، كما العادة. وكان عليَّ إحضارُ الحلويات من المخبز الكائن في المجمع التجاري، وهو مجموعة من المباني المؤقتة تم رفعها بعد الحرب، في انتظار الانتهاء من إعادة البناء. فور عودتي، نزعتُ ملابس الأحد وارتديتُ فستانًا سهل التنظيف. بعد مغادرة الزبائن وإغلاق مصاريع واجهة البقالة، تناولنا الطعام، والمذياع مشغل بلا شك، فقد كانت تلك الساعةُ هي موعد برنامج ساخر - «المحكمة» - مع «إيف دينيو»[1] في دور موظف بسيط يُتهم دائمًا بارتكاب جنح تافهة ويدانَ بأحكام سخيفة ينطقها قاض ذو صوت متهدج. كان مزاج والدتي عَكِرًا. والشجار الذي اندلع مع والدي فور جلوسها إلى المائدة لم يتوقف طيلة الوجبة. بعد رفع

(١) «LE TRIBUNAL DE LA SEMAINE» (المحكمة الأسبوعية)، برنامج إذاعي شهير على أمواج إذاعة «لوكسمبورغ» في الخمسينيات.
«YVES DENIAUD» (١٩٠١ - ١٩٥٩) ممثل ومغن فرنسي ساخر كان معروفًا في الخمسينيات.

الأطباق ومسح غطاء المائدة، واصلتْ تأنيب والدي، وهي تتحرك في المطبخ الضيق ـ العالق بين المقهى ومحل البقالة والدَرَجِ المؤدي إلى الطابق العلوي ـ كما هي عادتها لما تكون غاضبة. ظل أبي جالسًا دون جواب، مديرًا رأسه صوب النافذة. فجأة صار يتشنج ويتنفس بتوتر. نهض. ورأيتُه يأخذ بخناق والدتي، ويسحلها بالمقهى وهو يصرخ بصوت أجش، غامض. هربتُ إلى الطابق العلوي وارتميتُ في سريري ودفنت رأسي في الوسادة. سمعتُ أمي تصرخ «ابنتي!». كان صوتها قادمًا من مخزن النبيذ، بجانب المقهى. أسرعتُ إلى الأسفل وأنا أستغيثُ بكل ما أتيت من قوة: «النجدة!». في المخزن ذي الإضاءة الشحيحة، كان أبي يمسك بأمي من كتفيها أو عنقها. في اليد الأخرى كان يحمل ساطورًا لقطع الخشب بعد أن انتزعه من الدعامة حيث يكون مغروسًا عادة. لا أتذكر هنا سوى الانتحاب والبكاء والصراخ. بعدها وجدنا أنفسنا، نحن الثلاثة، في المطبخ. كان والدي جالسًا قرب النافذة. والدتي كانت واقفة عند الموقد، وكنتُ جالسة أسفل الدرج.. أبكي بدون توقف. لم يستعِدْ أبي بعدُ حالتَه الطبيعية، كانت يداه ما زالتا ترتجفان، ومازال له ذلك الصوت الغامض. كان يقول ويكرر «لماذا تِبكين.. لم أمسَسْك بسوء أنتِ». أتذكرِ هنا جملة صدرت عني: «سوف تسبب لي الجنون والتعاسة إلى الأبد»[1]. قالت أمي:

---

(١) في فرنسية أهل «نورموندي» (شمال غرب بفرنسا) يستعملون هذه العبارة=

«هيا.. انتهى الأمر». بعدها، ذهبنا، نحن الثلاثة، للنزهة بالدراجات الهوائية في الريف القريب. عند العودة، فتح والدي المقهى كما هي العادة مساء كل أحد. ولم نأت على ذكر أي شيء بعد ذلك أبدًا.

حدث ذلك في ١٥ حزيران ١٩٥٢. أول تاريخ دقيق وأكيد من زمن طفولتي. قبله، لم يكن هناك سوى انسياب للأيام والتواريخ المدونة على السبورة أو في الدفاتر.

فيما بعد، قلت لبعض الرجال: «أبي حاول قتل أمي لما شارفتُ الثانية عشر من عمري». أن تحذوني الرغبةُ في قول هذه الجملة كان يعني أنني أحببتهم. لزموا جميعُهم الصمتَ بعد سماعها. أحسست أنني ارتكبت خطأ، أنه لم يكن بوسعهم تحمل هذا الأمر.

أكتب هذا المشهد لأول مرة. إلى غاية اليوم، كان الأمر يبدو لي مستحيلاً. حتى في مذكراتي الحميمية. كأنه عمل محظور من شأنه أن يسلط عليَّ عقابًا ما.. ربما العجز عن كتابة أي شيء بعدها (غمرني نوع من الارتياح عندما لاحظتُ أنني أواصل الكتابة كما في السابق.. أنه لم يحدث أي شيء مريع). بل نما

=«Tu vas me faire gagner malheur» ولعل الترجمة الأقرب للمعنى المراد هو «التسبب في الجنون والتعاسة» جراء هلع مفاجئ.

لدي، منذ أن أفلحتُ في إنجاز هذا السرد، انطباعٌ أنه حدثٌ مألوفٌ داخل الأُسَر أكثر مما كنت أتصور. لعل الحكي، أي حكي، يحيل أي فعل، حتى الأكثر مأساوية، إلى حدث عادي. ولكن وبما أنني كنت أحتفظ دائمًا بهذا المشهد داخلي كصورة بدون كلمات ولا جمل، ماعدا تلك التي قلتُ لعشاقي، بدَتْ لي الكلمات التي استعملتُ لوصفه غريبةً.. غير ملائمة تقريبًا. لقد صار مشهدا في ملك الآخرين.

قبل الشروع في الكتابة، كنت أظن أنني قادرة على تذكر كل التفاصيل. في الحقيقة لم أتذكر سوى المناخ العام، وموضع كل واحد بالمطبخ، وبعض الكلام. لم أعد أتذكر السبب الأصلي للشجار.. إنْ كانت أمي ترتدي بلوزة البقالة البيضاء، أو إنْ كانت قد خلعتها استعدادًا للنزهة.. لم أعد أتذكر الطعام الذي تناولنا. ولا أحمل أي ذكرى محددة عن صبيحة ذلك الأحد، ما عدا تلك العادات اليومية ـ القداس، المخبز، إلخ ـ مع العلم أنني اضطررتُ، كما سيحدث فيما بعد مع أحداث أخرى، إلى العودة مرارًا إلى الماضي، إلى الزمن الذي يسبق هذا المشهد. ولكنني متأكدة من أنني كنتُ أرتدي فستانيَ الأزرقَ المنقط بالأبيض، لأنني كنت دائمًا أقول مع نفسي حين أهم بارتدائه في الصيفين المواليين: «هذا هو فستان ذلك اليوم». متأكدة كذلك من الطقس: خليط من الشمس والغيوم والرياح.

فيما بعد، غدا ذلك الأحد مثل «فِلْتر» ينتصب بيني وبين كل ما أعيشه. كنت ألعب، أقرأ، وأتصرف كما العادة، ولكنني لم أكن مندمجة في أي شيء. صار كل شيء مفتعلاً. لم أعد أستوعب الدروس التي كان يكفيني في الماضي قراءتُها مرة واحدة للإلمام بها. حل وعيٌ مفرط لا يستقر على أمر محل لا مبالاتي كتلميذة تعول كثيرًا على مهارتها.

إنه مشهد يستعصي اتخاذُ أي موقف بشأنه. والدي الذي يحبني أراد التخلص من أمي التي تحبني أيضًا. وبما أن والدتي كانت أكثر تدينا من والدي، وكانت تتكلف بالمسائل المالية وهي التي تسأل معلماتي عني، كنت أعتبر من الطبيعي أن تصرخ في وجهه كما تفعل معي تمامًا. لم يكن هناك ذنب ولا مذنب. فقط، كان عليَّ منع والدي من قتلِ أمي ودخولِ السجن.

لعلي انتظرتُ طيلة شهور، وربما سنوات، عودة هذا المشهد، على يقين أنه سيتكرر. كان حضور الزبائن يُطمئنني، كنت أتوجس من الفترات التي نكون فيها نحن الثلاثة لوحدنا، في المساء، وبعد ظهر أيام الآحاد. كنتُ أتَحَسَّبُ لأي ارتفاع للصوت بينهما. كنت أراقب أبي.. وجهَه.. يَدَيْه. وعند أي صمت مفاجئ، كنت أشعر باقتراب المصيبة. وأنا في المدرسة، كنت أخشى أن أجد المأساة قد حدثت عند عودتي.

عندما يُظْهِران الحنانَ لبعضهما بعض، بابتسامة أو ضحكة فيها تواطؤ أو دعابة، يخامرني الظن أنني عدت إلى زمن ما قبل ذلك المشهد.. أنه لم يكن سوى «كابوس». بعد ساعة، كنت أدرك أن هذا الحنان لا يكتسي أي معنى خارج اللحظة التي انبثق فيها، ولا يشكل أي ضمانة للقادم من الأيام.

في تلك الفترة، كانت تذاع باستمرار في الراديو أغنية غريبة تصف وتحاكي عراكا يندلع فجأة في «سالون»[1]: كانت تسود فترة من الصمت يهمس فيها صوت «نكاد نسمع خفقان جناحي الذبابة» ثم ينفجر صراخ وكلام غير مفهوم. في كل مرة كان يتملَّكُني الخوف. في أحد الأيام، مد لي خالي الرواية البوليسية التي كان بصدد قراءتها: «ماذا لو كان والدك متهمًا بجريمة قتل ولم يكن مذنبًا؟» أحسستُ ببرودة شديدة تكتسحني. وصرت أرى في كل مكان مشهد مأساة لم تحدث.

لم يتكرر ذلك المشهد أبدًا. وقد توفي والدي بعد خمسة عشر عاما، في يوم أحد من حزيران!

الآن فقط أنتبه إلى هذا الأمر: لعل والديَّ أثارا بينهما مشهدَ ذلك الأحد وتَصَرُّفَ أبي. وتوصلا إلى تفسير أو اعتذار، وقررا نسيان كل شيء. مثلاً، خلال ليلة ما بعد أن مارسا الجنس. هذه

---

(١) «SALOON» اسم يطلق عادة على حانة في الغرب الأمريكي.

الفكرة جاءت، كما هو الحال مع كل تلك الأفكار التي لم تخطر ببالنا في وقتها، متأخرة جدًا. لن تسعفني في شيء الآن، اللهم إلا في قياس - بسبب غيابها - الرعب الذي لا يوصف.. الرعب الذي جسده ذلك الأحد بالنسبة إلي.

في شهر أغسطس، جاء بعض الإنجليز للتخييم. أقاموا قرب طريق مهجور في جنوب فرنسا. في الصباح عثر عليهم مقتولين: الأب «سير جاك دروموند»، الأم «ليدي آن»، وابنتهما «إليزابيث». كانت الضيعة الأقرب إلى مكان الحادث في ملكية عائلة من أصول إيطالية، «آل دومينتشي»، التي اتهم ابنها «غوستاف»، في الوهلة الأولى، بارتكاب الجرائم الثلاثة. لم يكن «آل دومنيتشي» يتقنون الفرنسية. ربما كان «آل دروموند» يتحدثون بها أفضل منهم. من الإنجليزية والإيطالية لم أكن أعرف سوى «Do not lean outside» و«é pericoloso sporgersi» المكتوبة في القطارات تحت عبارة «يمنع الاتكاء إلى الخارج». كان مبعث استغراب بالنسبة إلينا أن يفضل أناس أغنياء النوم في العراء بدل الفندق. تخيلتني وقد متُّ إلى جانب والديَّ على قارعة الطريق!.

من تلك السنة، احتفظت بصورتين.

الأولى تظهرني وأنا أرتدي لباس القربان المقدس. إنها

«صور فنية» بالأبيض والأسود، مُثبتة على كتيب من الورق المقوى المزين بأشكال لولبية، ومغطاة بورقة شبه شفافة. في داخل الكتيب توقيع المصور. تبدو في الصورة فتاة بوجه ممتلئ، ناعم. وجنتان بارزتان. أنف مكور بمنخرين عريضين. نظارات ذات إطار كبير يصل إلى وسط الوجنتين. العينان تركزان على العدسة. الشعر قصير، مجعد، يفيض عن القلنسوة التي يتدلى منها الوشاح المربوط بغير إحكام تحت الذقن. بالكاد ابتسامة خفيفة على طرف الشفة. إنه وجه فتاة صغيرة جدية، تبدو أكبر من سنها بسبب شعرها المجعد والنظارات. الفتاة تجثو على كرسي الصلاة. المرفقان متكئان على الدعامة العليا المبطنة للكرسي. الكفان ـ عريضتان بخاتم في الخنصر ـ متشابكتان تحت الخد وحولهما سبحة يرتخي طرفُها على كتاب الصلاة. القفازتان موضوعتان على الكرسي. معالم الجسد غير واضحة داخل فستان من قماش الموسلين حزامه غير مربوط بإحكام تمامًا مثل القلنسوة.. انطباع بغياب أي جسد تحت رداء الراهبة هذا، فلا أفلح في تخيله، فما بالك الإحساس به كما أحس بجسدي الآن. يعتريني الاندهاش وأنا أفكر أنه الجسد ذاته.

هذه الصورة تعود إلى الخامس من حزيران ٥٢. لم تؤخذ في اليوم الرسمي الذي حضرتُ فيه القربان المقدس في ٥١، بل

ـ ولم أعد أتذكر سبب ذلك ـ في يوم تجديد النذور حيث نعيد حضور القداس بنفس الرداء بعد عام.

على الصورة الأخرى، وهي صغيرة ومستطيلة، أقف مع والدي أمام حائط مزين بأُصُصِ الزهور. كان ذلك في «بياريتز»[1] عند نهاية أغسطس ٥٢، بلا شك لما كنا في المنتزه المحاذي للبحر الذي لا يظهر في الصورة، خلال رحلة منظمة إلى «لورد»[2]. لم يكن طولي يتجاوز مترًا وستين سنتمترًا لأن رأسي بالكاد تتجاوز كتف أبي الذي كان طوله مترًا وثلاثة وسبعين سنتمترًا. نما شعري بشكل ملحوظ في ظرف ثلاثة أشهر، مشكلاً نوعًا من التاج الصوفي، يلمه شريط ملفوف حول الرأس. الصورة مضببة جدًا. التُقِطَتْ بكاميرا مكعبة كان والداي قد فازا بها في معرض خيري قبل الحرب. وجهي لا يبدو واضحًا، ولا نظاراتي. ولكن الابتسامة العريضة كانت واضحة. كنت أرتدي تنورة وقميصا أبيض، أي الرداء الموحد لحفلة شباب المدارس المسيحية. فوقه وضعت سترة دون ارتداء أكمامها. في الصورة أبدو نحيفة، بدون صدر، بسبب التنورة الضيقة عند الوركين والمتسعة في الأسفل. في هذا اللباس كنت أشبه امرأة ضئيلة. والدي كان يرتدي سترة داكنة، وقميصا

---

(١) «بياريتز» (BIARRITZ)، مدينة سياحية تطل على المحيط الأطلسي في أقصى جنوب غرب فرنسا.

(٢) «لورد» (LOURDES)، مدينة في أقصى جنوب فرنسا، وهي مزار للمسيحيين.

وسروالا بألوان فاتحة. بالكاد يبتسم، مع تلك النظرة القلقة المعتادة التي يظهر بها على كل الصور. بلا شك، احتفظتُ بهذه الصورة لأننا نبدو فيها، خلافًا للأخريات، على غير طبيعتنا، أي أناسًا أنيقين.. مصطافين. لم أفتح فمي، على كِلتي الصورتين، للابتسام، بسبب أسناني المعطوبة وغير المرصوصة.

أمعن النظر في هاتين الصورتين حتى أغيب عما حولي، كأنني سأفلح، من فرط التحديق إليهما، في التسلل إلى جسد ورأس تلك الفتاة التي كانت، في يوم ما، تجثو على كرسي الصلاة لدى المُصَوِّر.. تقف إلى جانب والدها في «بياريتز». والحال أنه لو لم يسبق لي رؤيتهما.. لو عُرِضَتَا عليَّ لأول مرة، لما صَدَّقْتُ أنني أنا (يقينًا «أنا».. استحالة التعرف على نفسي: «لستُ أنا»).

بالكاد تفصل ثلاثة أشهر بين الصورتين. تعود الأولى إلى بداية حزيران، الثانية إلى نهاية أغسطس. وهما مختلفتان جدًا من حيث الشكل والجودة لدرجة لا يمكن أن تشكلا مقياسًا لأي تغيير في جسدي وملامحي، ولكنهما، تبدوان لي حَدَّيْن زمنيين.. الأول، للطفلة التي تتلقى القربان المقدس عند نهاية الطفولة.. الثاني يدشن الزمن الذي لن أتوقف فيه أبدًا عن الشعور بالعار. لعل الأمر لا يتعلق، في النهاية، سوى برغبة في اقتطاع فترة محددة من ذلك الصيف، كما كان سيفعل مؤرخ ما.

(قول «في ذلك الصيف» أو «صيف عامي الاثني عشر» يعني أن نحول إلى الرومانيسك ما ليس جديرًا بذلك، تمامًا مثلما هو صيف ١٩٩٥ هذا بالنسبة إلي، والذي لا يمكن حتى أن أتخيل أنه سيرتقي يومًا ما إلى تلك الصورة السحرية التي يوحي بها تعبير «في ذلك الصيف»).

من تلك السنة، بقي لي كذلك كأثر مادي:

ـ صورة ـ بطاقة بريدية بالأبيض والأسود لـ«إليزابيث الثانية». أُهْدِيت لي من طرف حفيدة أصدقاءٍ لوالديْ من «لوهافر»، وكانت قد زارت إنجلترا رفقة زملائها في الفصل لحضور حفل التتويج. على ظهر البطاقة، بقعة بنية، كانت هناك لما أُهْدِيت لي، وكانت تثير اشمئزازي. كلما صادفت البطاقة إلا وفكرت توا في تلك اللطخة. تبدو عليها إليزابيت الثانية في صورة جانبية وهي تنظر إلى البعيد، شعرها أسود، قصير، مصفف إلى الخلف، الفم كبير، زاد من حجمه أحمر شفاه داكن. اليد اليسرى على الفراء، اليمنى تمسك بمروحة. يستحيل عليَّ أن أتذكر إن كانت تبدو لي، آنذاك، جميلة. لعل السؤال لم يكن مطروحا أصلاً، بما أنها ملكة.

ـ محفظة صغيرة للوازم الخياطة من الجلد الأحمر، فارغة من محتوياتها: المقص، المخطاف، المخرز، إلخ.. كانت هدية

أعياد الميلاد، فضلتها على لحيفة المكتب، لأنها كانت أكثر نفعًا بالمدرسة.

ـ بطاقة بريدية لكاتدرائية «ليموج»[1] من الداخل كنتُ قد أرسلتها إلى أمي خلال الرحلة المنظمة إلى «لورد». بحروف كبيرة كتبتُ على ظهرها: «في ليموج، الفندق رائع، يرتاده الأجانب بكثرة. قبلات كبيرة». وضعت اسمي و«بابا». والدي هو الذي كتب العنوان. خاتم البريد يحمل تاريخ ٢٢/٠٨/٥٢.

ـ كُتيب للبطائق البريدية، «قلعة لورد. متحف البرانس»، الذي اشتريته على الأرجح لما زرنا القلعة.

ـ كراسة التوزيع الموسيقي لإحدى الأغاني، «رحلة إلى كوبا»[2]، وهي عبارة عن صفحتين زرقاوين، وعلى الغلاف، سفن صغيرة عليها أسماء الفنانين الذين أدوا الأغنية أو عزفوا لحنها: «باتريس وماريو»، «الأخوات إتيان»، «مارسيل أزولا»، «جون سابلون»، إلخ. لعلي كنت أحب هذه الأغنية كثيرًا حتى

---

(١) «ليموج» (LIMOGES)، مدينة في وسط فرنسا.

(٢) «VOYAGE A CUBA» (رحلة إلى كوبا)، أغنية فرنسية ظهرت في ١٩٥١، وأداها كل من المغنية «لوسيان دوليل» وزوجها المغني «إيمي بريلي».

أسعى إلى الحصول عليها مكتوبة، وأُفْلِحَ في إقناع أمي أن تعطيني المال لشراء شيء تافه في نظرها، وبالخصوص غير ضروري للتحصيل في المدرسة.. كنت أحبها على ما يبدو أكثر من نجاحات ذلك الصيف: «حماقتي الصغيرة» و«مكسيكو»[1]، اللتان كان يدندن بهما واحد من سائقي الحافلة خلال رحلة «لورد».

ـ كتاب الصلاة الذي يظهر تحت قفازتي في صورةِ تَلَقِّي القربان المقدس، يحمل عنوان «كتاب الصلاة الروماني» لصاحبه «دوم غاسبار لوفيفر» الصادر بمدينة «بروج»[2]. كل صفحة فيه مقسمة إلى عمودين، فرنسي ولاتيني، إلا في وسط الكتاب المخصص لـ«القداس العادي» حيث كانت الصفحة اليمنى بالفرنسية واليسرى باللاتينية. مقدمة الكتاب خصصت لـ«التقويم الليتورجي للزمن والأعياد المتنقلة، من ١٩٥١ إلى ١٩٦٨». تواريخ غريبة، خاصة وأن الكتاب خارج الزمن ويمكن أن تعود

---

(١) «MA P'TITE FOLIE» و«MEXICO» أغنيتان شهيرتان في بداية الخمسينيات بفرنسا، الأولى من أداء المغنية الشهيرة «لين رينو» والثانية من غناء المغني «لويس ماريانو».

(٢) «DOM GASPARD LEFEBVRE» (١٨٨٠ ـ ١٩٦٦) قس بلجيكي، مؤلف كتب الصلاة الكاثوليكية الأكثر انتشارًا في فرنسا وبلجيكا في القرن العشرين.

«BRUGES»، مدينة في غرب بلجيكا.

كتابته إلى قرون عديدة. كلمات كانت تتكرر بلا توقف ومازالت بالنسبة إلى غامضة إلى يومنا هذ، من قبيل «la secrete»، «le graduel»، «le trait»[1] (لا أتذكر أنني سعيت إلى استيعابها أبدًا). تملكني ذهول عميق، حد الضيق، وأنا أتصفح هذا الكتاب الذي بدا لي مكتوبًا بلغة خاصة. أتذكر كل الكلمات ويمكنني استظهار تتمة قسمة «حَمَل الله» أو أي صلاة قصيرة أخرى. ولكن لا أجدني في الفتاة التي كانت تعيد، كل أحد وفي كل عيد، القداس بجدية، وربما بحماس، لأنها تعتبر بلا شك أن عدم القيام بذلك إثم من الآثام. وكما أن الصور تشكل برهانا على جسدي في ٥٢، فإن كتاب الصلاة ـ وليس من الصدفة الاحتفاظ به على مر الترحال ـ دليل مادي دامغ على الوسط الديني الذي كنت أعيش في كنفه، والذي لم أعد أحس به البتة.

بالمقابل لا يعترني الشعور نفسه بالضيق في حضرة «رحلة إلى كوبا» التي تتحدث عن الحب والسفر، وهما رغبتان مازالتا تؤثثان حياتي اليوم. وقد دندنت للتو بكلماتها بكل سرور:

كنا فَتَيَيْن وفتاتينْ

---

(١) «LA SECRETE» نوع من الابتهال.
«LE GRADUEL» يطلق على نوع من الأناشيد الدينية كما تطلق هذه الكلمة على ديوان الأناشيد الدينية.
«LE TRAIT» نشيد يتلى في أيام آحاد الصوم عند الكاثوليك.

على متن زَوْرَقٍ صغيرْ
«نينا ـ جونتي» اسمُه كانْ
وإلى كوبا نشد المسيرْ.

أعيش منذ أيام عديدة مع مشهد ذلك الأحد من حزيران. لما كنتُ بصدد كتابته، كنت أراه «بالواضح»، بالألوان، بأشكال مميزة واضحة.. كنت أسمع الأصوات. الآن، صار رماديًا، غير متجانس، أخرس، مثل فيلم على شاشة قناة مُشفَّرة. تَرْجَمَتُهُ إلى كلمات لم تُغيرْ شيئًا من كونه فارغًا من أي معنى. ما زال على حاله منذ ٥٢. شيء من الجنون والموت. قارنتُه، مرارًا، بجل الأحداث التي مرت بحياتي، حتى أَقيسَ درجة ألمها. لم أَعْثُرْ له قط على نظير.

إذا كُنْتُ ـ كما يساورني الظن، عبر مؤشرات عديدة: الرغبة في مراجعة السطور التي كَتَبْتُ، واستحالة القيام بأي شيء آخر ـ بصدد تأليف كتاب، فلعلي خاطرتُ وكشفتُ كل شيء دفعة واحدة. لا شيء من هذا. فقط الحدث في حالته الخام. أريد خلخلة هذا المشهد الجامد منذ سنوات وسنوات، حتى أخلع عنه طابعه المقدس كأيقونة في دواخلي (والشاهد على هذا الأمر، مثلاً، ذلك الاعتقاد بأنه هو الذي يحملني على الكتابة، هو الذي يشكل كُنْهَ مؤلفاتي).

لا أنتظر شيئًا من التحليل النفسي ولا من علم النفس العائلي اللذين لم أتجشم عناء كبيرًا لبسط خلاصاتهما الأولية منذ زمن طويل: أم مهيمنة، أب فجر خضوعه بتصرف عنيف، إلخ. فالقول «إن الأمر يتعلق بصدمة عائلية» أو «إن آلهة الطفولة انهارت في ذلك اليوم» لا يلامس ذلك المشهد الذي لا تُعبرُ عنه سوى تلك العبارة التي تَبَادَرَتْ إلى ذهني لحظتئذ: «سوف تسبب لي الجنون والحزن إلى الأبد». الكلمات المجردة تظل، ها هنا، فوق طاقتي.

قصدتُ أمس «أرشيف» مدينة «روان»[١] لمراجعة أعداد عام ١٩٥٢ من صحيفة «Paris-Normandie»، التي كان بائع الجرائد يرسلها يوميًا إلى والديّ. لم أجرؤ، أيضًا، على القيام بهذا الأمر من قبل، كأن تصفح جريدة حزيران ذاك «سيسبب لي الجنون والحزن إلى الأبد». وأنا أصعد الدرج تملكني إحساس بأنني ذاهبة إلى موعد مريع.

تحت السقف الخشبي لأحدى القاعات بالبلدية جاءتني سيدةٌ بسجلين كبيرين يضمان كل أعداد ٥٢. شرعت في تصفحها ابتداء من الأول من كانون الثاني. كنت أريد تأخيرَ الوصول إلى

---

(١) «روان» (ROUEN)، مدينة تقع في شمال غرب فرنسا، وهي عاصمة منطقة «نورموندي».

الـ١٥ من حزيران.. الانغماسَ من جديد في الانسياب البريء لأيامي قبل هذا التاريخ.

في أعلى يمين الصفحة الأولى، تظهر توقعات أحوال الطقس لـ «القس غابرييل»، لا أتذكر شيئًا له علاقة بها.. لا ألعاب ولا نزهات. كنتُ غائبة عن تعاقبِ الغيوم، والشمس، والأجواء الصافية، والزوابع.. التعاقبِ الذي يعكس حركة الزمن.

كنت أعرف جل الأحداث المشار إليها في أعداد الجريدة: حرب الهند الصينية، حرب كوريا، أعمال الشغب بـ«أورليانسفيل»[١]، مخطط «بيني»[٢]. ولكن لم أكن لأضعها بالضرورة في ١٩٥٢، لأنها بلا شك كانت قد تَرَسَّخَتْ بذاكرتي في حقبة لاحقة من حياتي. لا أستطيع ربط «انفجار ست دراجات بـ'سايغون'» و«وضع 'دوكلو'[٣] في سجن 'فرين' بتهمة المس بأمن الدولة» مع أي صورة لي في ١٩٥٢. وبدا لي غريبًا أن «ستالين» و«تشرتشل» و«إيزنهاور» كانوا أحياء كما هو حال

---

(١) «أورليانسفيل» (ORLEANSVILLE) الاسم الذي كان يطلقه الفرنسيون على مدينة «شلف» الجزائرية إبان الاستعمار.

(٢) «أنطوان بيني» (ANTOINE PINAY) (١٨٩١ ـ ١٩٩٤) سياسي فرنسي عين وزيرًا أول في ١٩٥٢ حاملا معه مخططا لإخراج اقتصاد فرنسا من أزمة خانقة.

(٣) «جاك دوكلو» (JACQUES DUCLOS) (١٨٩٦ ـ ١٩٧٥) أحد قادة الحزب الشيوعي الفرنسي. اتهم بعد مظاهرات في ماي ١٩٥٢ بالمس بامن الدولة.

«يلتسين» و«كلينتون» و«كول» الآن[1]. لم أتعرف على أي شيء. كأنني لم أعش في ذلك الزمن.

وأنا أنظر إلى صورة «بيني»، أدهشني الشبه الكبير بينه وبين «جيسكار ديستان»، ليس «جيسكار» الحالي، الطاعن في السن، بل كما كان قبل عشرين سنة. أعادتني عبارة «الستار الحديدي» إلى القسم في المدرسة الخاصة، لما كانت المعلمة تطلب منا أن نؤدي صلاة السبحة من أجل المسيحيين الذين يوجدون خلفه. كنت أتخيله جدارًا معدنيًا هائلاً يرتمي عليه الرجال والنساء.

إلا أنني تعرفت بسرعة على الرسوم المتحركة الساخرة «بوستيكي»، الشبيهة بتلك التي كانت تظهر لزمن طويل على الصفحة الأخيرة لصحيفة «France-Soir».. وتعرفت على قصة اليوم المضحكة، والتي تساءلت إن كانت حقًا تضحكني آنذاك. ومن تلك القصص: إذن أيها الصياد.. هل عضت (يقصد الصنارة)؟.. أوه، لا سيدي، إنه سمك الـ'كوجو' وهو لطيف!». تعرفت كذلك على الإعلانات وعناوين الأفلام المعروضة في قاعات السينما بـ«روان» قبل أن تصل إلى بلدة «إ»[2]، من قبيل فيلمي: «عشاق كابري»، «زوجتي رائعة».. إلخ

---

(١) الكاتبة تتحدث هنا عن أواسط التسعينيات، زمن تأليفها لهذا الكتاب.

(٢) «إ» المقصود بها مدينة «إيفتو» (YVETOT)، حيث ولدت الكاتبة «أني=

كانت في الجريدة أخبار حوادث مروعة كل يوم: وفاة طفل عمره عامين بسبب هلالية (كوراسون)، فلاح يجز بالحصادة اليدوية ساقي ابنه الذي كان مختبئًا وسط السنابل، قنبلة من الحرب تقتل ثلاثة أطفال ببلدة «كْرِيْ». كنت أميل إلى قراءة هذه الحوادث أكثر من أي شيء آخر.

كانت أثمنة الزبدة والحليب تحتل الصفحة الأولى. وكان واضحًا أن للعالم القروي مكانة مميزة، كما تشهد على ذلك الأخبار الخاصة بالحمى القلاعية، والربورتاجات عن الفلاحات، والإعلانات الخاصة بمنتوجات البيطرة.. «Lapicrine».. «Osporcine». ويبدو من خلال الكمية الكبيرة للعقاقير وأنواع الشراب التي كانت تحظى بالإعلانات، أن الناس كانوا كثيري السعال أو كانوا يتداوون فقط بهذه الأدوية دون الذهاب إلى الطبيب.

كان عدد السبت يتضمن ركنًا اسمه «لَكُنَّ سيداتي». لمحت تشابهًا خفيفًا بين بعض موديلات السترات وتلك التي كنت أرتدي في صورة «بياريتز». بالنسبة إلى الباقي، فلا والدتي ولا أنا كنا نرتدي مثل هذه الملابس المعروضة. ولا تظهر، بين

=إرنو» وترعرعت، وهي مدينة صغيرة تقع في منطقة «نورموندي» بشمال غرب فرنسا على بعد حوالي ٣٠ كلم من «روان» و٤٥ كم من ميناء «لوهافر»، وتبعد عن باريس بحوالي ١٧٠ كلم في اتجاه الشمال الغربي.

التسريحات المقترحة من طرف الجريدة، الطريقة التي جمعتُ بها شعري المجعد في تلك الصورة.

وصلت إلى عدد السبت ١٤ ـ الأحد ١٥ حزيران. على الصفحة الأولى: «توقعات بارتفاع محصول الحبوب بـ١٠ في المائة.. لا مرشح للظفر بسباق الـ٢٤ ساعة لـ'مانس..' التحقيق مع السيد 'دوكلو' مطولاً بباريس.. بعد ١٠ أيام من البحث، العثور على جثة 'جويل' قرب منزل والديها (ألقتْ بها في بالوعة الواد الحار جارةٌ اعترفت بالجريمة)».

تلاشت رغبتي في مواصلة قراءة أعداد الجريدة. وأنا أنزل درج قسم «الأرشيف»، انتبهتُ إلى أنني جئت إلى هنا كأنني سأعثر على ذلك المشهد في جريدة ١٩٥٢. فيما بعد، فكرتُ باندهاش أنه كان يجري بينما السيارات تزأر بلا كلل في مدار السباق بمدينة «مانس»[1]. لم يكن بمقدوري من قبل التقريب بين الصورتين. ثم قلت لنفسي: لا يمكن وضع أيٍّ من ملايير الحوادث، التي وقعت بالعالم في ذلك الأحد، إلى جانب هذا المشهد دون أن يغمرني ذلك بالذهول. فهو وحده الذي كان حقيقيا بالنسبة إلي.

---

(١) «مانس» (LE MANS) مدينة تقع في غرب فرنسا، وهي شهيرة بسباق السيارة الذي يدوم ٢٤ ساعة دون توقف.

وضعت أمامي قائمة الأحداث، والأفلام والإعلانات التي دَوَّنتُ بنوع من الرضا، وأنا أتصفح أعداد «Paris-Normandie». لا أنتظر شيئًا من هذا النوع من الوثائق. فالانتباه إلى قلة الإعلانات الخاصة بالسيارات والثلاجات، وأن «لوكس» كان صابون النجوم في ٥٢ لا يكتسي أهمية، تمامًا مثل تعداد الحواسب وأجهزة الميكروويف، والمنتوجات المجمدة في التسعينيات. والحال أن التوزيع الاجتماعي للأشياء أكثر بلاغة من مجرد جردها. ما كان يهم في ٥٢ هو ألا يكون لديك الماء في الصنبور بينما الآخرون لديهم حمَّام، أما اليوم فما يهم أن ترتدي ملابسك من «Froggy» بينما الأخريات يقتنينها من «Agnes B». الحق أن الصحف لا تقدم سوى إشارات جماعية حول الاختلافات بين الحقب.

ما يهمني هو استعادة الكلمات التي كنت أتصور بها ذاتي، أتصور بها العالم المحيط بي.. قول ما كان بالنسبة إليَّ طبيعيا وما كان غير مقبول، بل غير مُتَخَيَّل حتى. ولكن المرأة التي صِرْتُها في ٩٥ عاجزة عن الحلول في فتاة ٥٢ التي لم تكن تعرف سوى مدينتها الصغيرة، وأسرتها، ومدرستها الخاصة.. لم يكن في متناولها سوى رصيد لغوي محدود. أمامها، كانت تمتد شساعة الزمن المعيش. لا وجود لذاكرة حقيقية للذات.

لإدراك الواقع الذي كنتُ أعيش في كنفه آنذاك، لا أملكُ وسيلةً أخرى غيرَ استعادةِ القوانين والطقوس، والمعتقدات

والقيم التي كانت تؤطر الوسط الاجتماعي، والمدرسة، والأسرة، والمحافظة، حيث كنتُ عالقة، والتي كانت تُسَيِّرُ حياتي، دون أن أنتبه إلى تناقضاتها.. الكشفِ عن اللغات التي كانت تشكلني: مفردات الدين، كلمات الوالدين المرتبطة بالسلوك والأشياء، كلمات الروايات التي كنت أقرأ في مجلة «Le Petit Echo De La Mode» أو مجلة «Les Veillées Des Chaumières».. توظيفِ هذه الكلمات، التي مازِلْتُ أرزحُ تحت ثقل بعضها، لتفكيك وإعادة تركيب نص العالم الذي بلغت فيه الثانية عشر، حول مشهد ذلك الأحد من حزيران.. ذلك العالم الذي ظننتُ فيه أنني أُصبتُ بالجنون.

طبعًا، لا يتعلق الأمر هنا بحكي يسعى إلى خلق واقع بدل البحث عنه. لا يجب كذلك الاكتفاء باستعادة صور الذكرى ونسخها، بل ينبغي التعامل معها كوثائق ستكشف خباياها بعد إخضاعها لمقاربات مختلفة. باختصار، عليَّ أن أكون إثنولوجيةً لذاتي.

(ليس من الضروري طبعًا الإشارة إلى كل هذا، ولكن لا يسعني الشروع في الكتابة حقًا دون الحرص على الإحاطة بظروف كتابتي).

بهذه الطريقة، لعلي أسعى إلى إذابة المشهد العصي على الوصف، الذي عشته في الثانية عشر، في ثنايا عموميات القوانين واللغة. أو لعله ذلك الأمر الفظيع والمُهلك الذي أَوْحتْ

لي به كلماتُ كتاب للصلاة صار مستعصيًا عليَّ الآن.. كلماتٌ شَعِيرَةٍ يربطها تفكيري بأي طقس من طقوس الفودو: هاكم، اقْرَؤُوا.. هذا جسدي، وهذا دمي الذي سَيُراقُ من أجلكم!

في حزيران ٥٢، لم أكن خرجتُ قط من الأرض التي نُسَمِّيها، بشكل فضفاض ولكن مفهوم من طرف الجميع، «ديارنا».. «بلاد كو»[١] على الضفة اليمنى لنهر السين، بين «لوهافر»[٢] و«روان». بَعْدَهَا، يبدأ المجهولُ، بقيةُ أرض فرنسا وبقية العالم، التي يجمعها تعبير «هناك» مع حركة من الذراع تشير إلى الأفق الشاسع بتلك اللامبالاة وذلك الإحساس باستحالة تصور العيش فيه. إذ كان يبدو مستحيلا الذهابُ إلى باريس خارج رحلة منظمة، ما عدا إن كان لديك أقارب قادرون على الأخذ بيدك هناك. أَخْذُ الميترو كان يبدو أمرًا معقدًا، أكثر رعبًا من ركوب القطار الشبح في الملاهي، ويتطلب تدريبًا كنا نفترض أنه طويل وصعب. كان هناك اعتقاد عام بأنه لا يمكن

---

(١) «بلاد كو» (LE PAYS DE CAUX)، منطقة في غرب جهة «نورموندي» تبلغ مساحتها حوالي ٣ آلاف كلم مربع.

(٢) «لوهافر» (LE HAVRE)، مدينة في غرب فرنسا، وهي من أهم موانئ البلاد.

للمرء الذهاب إلى وجهة ما دون معرفة مسبقة.. كان يسود الإعجاب بالذين واللواتي لا يخشون الذهاب إلى أي مكان.

تثير المدينتان الكبيرتان القريبتان من «ديارنا» ـ «لوهافر» و«روان» ـ رهبةً أقل. فهما جزء من الذاكرة الأسرية للجميع، جزء من الحديث اليومي العادي. فالكثير من العمال يشتغلون بهما، يقصدونهما صباحًا ويعودون مساء على متن قطار «الميشلين». في «روان»، الأقرب والأكبر من «لوهافر»، يوجد كل شيء: المتاجر الكبرى، الأطباء المتخصصون في كل الأمراض، عدة قاعات للسينما، مسبح مغطى لتعلم السباحة، معرض التسوق «سان-رومان» الذي ينظم طيلة شهر كامل (تشرين الثاني)، الترامووي، قاعات الشاي، ومستشفيات ضخمة حيث ينقل المرضى لإجراء عمليات جراحية دقيقة، وللتَّدَاوِي من التسممات، وللعلاج بالصدمات الكهربائية. لا يقصدها أحد بـ«لباس الأيام العادية» ما عدا من يعمل في إحدى أوراش إعادة البناء. تأخذني إليها أمي مرة في السنة لإجراء الفحص عند طبيب العيون، وشراء نظارات. تستغلُ الفرصةَ لاقتناء مستحضرات التجميل والسلع التي «لا توجد في 'إ'». في «روان» لسنا في ديارنا تمامًا، لأننا لا نعرف أحدا. يبدو الناس أكثر أناقة وأحسن حديثا. في «روان» يتملكنا إحساس ملتبس بأننا «متأخرون» عن الحداثة، وعن مستوى الذكاء العام.. وعن تلك التلقائية في

السلوك والحديث. كانت «روان» بالنسبة إلي صورة من صور المستقبل، تمامًا مثل الروايات المسلسلة ومجلات الموضة.

في ٥٢، لم أكن أتصور نفسي خارج «إ».. خارج أزقتها.. خارج محلاتها التجارية.. خارج سكانها الذين يعرفونني بـ«أني. دِ» أو «الصغيرة دِ». لا وجود لعالم آخر بالنسبة إلي. كل الأحاديث تتضمن «إ». كنا نحدد مواقعنا ورغباتنا قياسًا بمدارسها، كنائسها، أعيادها، تجار الأقمشة. هذه المدينة بساكنتها البالغة سبعة آلاف نسمة والواقعة بين «لوهافر» و«روان»، هي المدينة الوحيدة حيث يمكننا أن نقول عن أكبر عدد من سكانها: «يقطن/تقطن في هذا الزقاق، ولديه/ لديها هذا العدد من الأطفال، ويشتغل/تشتغل في هذا المكان».. حيث يمكننا معرفة مواعيد الصلوات بالكنيسة، ومواعيد سينما «لوروا»، والمخبز الأفضل، والجزار الأقل سرقة. بها وُلِد والداي، وقبلهما والداهما وأجدادُهما في القرى القريبة. لا توجد مدينة أخرى نملك كل هذه المعرفة الشاسعة عنها، مكانا وزمانا. كنت أعرف مَنْ كان يعيش قبل خمسين عاما في المنزل المجاور لبيتنا.. مِنْ أين كانت أمي تشتري الخبز وهي عائدة من المدرسة الجماعية. كنتُ أصادف رجالا ونساء كانت أمي وأبي على وشك الزواج بهم/ بهن قبل أن يلتقيا. الناس الذين «ليسوا من هنا» هم أولئك الذين لا نعرف عنهم شيئًا.. الذين لهم تاريخ مجهول، أو لا يمكن التحقق منه، ولا يعرفون شيئًا عن تاريخنا.

فأهل «بروطون»، أهل «مارسيليا»، الإسبان.. كل مَنْ لا يتكلمون «مثلنا» يعتبرون، بدرجات متفاوتة، أغرابا.

(يستحيل عليَّ ذكر اسم هذه المدينة هنا، كما فعلتُ في مناسبات أخرى. فهي ليست موقعًا جغرافيًا على الخريطة يعبره القادمون من «روان» في اتجاه «لوهافر» على متن القطار أو في السيارة عبر الطريق الوطنية رقم ١٥. إنها مسقط الرأس الذي لا اسم له، حيث يستولي عليَّ ـ لما أعود إليه ـ فتور يشلني عن كل تفكير، يحرمني من أي ذاكرة محددة، كأنه سَيَبْتَلِعُنِي من جديد).

طوبوغرافيا «إ» في ٥٢:

وسط المدينة ـ الذي دمره حريق خلال تقدم القوات الألمانية في ١٩٤٠، وتعرض للقصف بعد ذلك في ١٩٤٤ إسوة بباقي منطقة «نورموندي» ـ ما زال قَيْدَ إعادة البناء. وهو مزيج من الأوراش، والأراضي الخالية، والعمارات المشيدة بالإسمنت من طابقين مع محلات عصرية في الطابق الأرضي، والبنايات المؤقتة، والمباني القديمة التي نجت من الحرب، فضلاً عن مقر البلدية، وسينما «لوروا»، ومركز البريد، والسوق. أما الكنيسة فقد التهمتها النيران. وعَوَّضَتْهَا صالةُ الرعاية بميدان البلدية: كان القداس يقام على الخشبة أمام الناس الجالسين على الأرضية المقابلة أو في الرواق المحيط بهذه القاعة.

حول المركز تتشعب الأزقة المبلطة أو المُعبدة، التي تحفها البنايات ذات الطوابق المشيدة بالآجُر أو الحجر، والأرصفة، ومنازل معزولة خلف السياجات يعيش بها موثقون، وأطباء، ومديرون، إلخ. يضم المركز كذلك المدرستين، العمومية والخاصة، ولكن بعيدًا عن بعضهما بعض.

نخرج الآن من المركز ولكن ما زلنا في المدينة. بعد هذا المركز إذن تمتد الأحياء التي يقول سكانُها إنهم ذاهبون إلى «المدينة» ـ بل حتى إلى «إ» ـ لما يقصدون وسطها. والحق أن الحدود بين «المركز» والأحياء الأخرى ليست واضحة من الناحية «الجغرافية»: نهاية الرصيف، كثرة المنازل العتيقة (نصفها من الخشب، من غرفتين إلى ثلاث على الأكثر، بدون ماء، والمراحيض بالخارج)، كثرة بساتين الخضر، تضاؤل المحلات التجارية ما عدا محل يجمع بين البقالة والمقهى وبيع الفحم، ظهور الأحياء المغلقة المتشابهة المباني. ولكن هذه الحدود تظل عمليًا واضحة للجميع: المركز هو ذلك المكان الذي لا نقصده للتبضع ونحن نرتدي لباس العمل، أو نِعَال البيت. وتقل قيمة الأحياء كلما ابتعدنا عن هذا المركز، وقلت الفيلات وأخذت تتكاثر التجمعات السكنية ذات الباحات المشتركة. أما الأحياء الأكثر بعدًا ـ ذات الطرق غير المعبدة، وكثرة الحفر لما تمطر، وبها مزارع خلف الوهاد ـ فتنتمي إلى الريف.

يمتد حي «كلو-دي-بار»، المتميز بشكله الطولي، من المركز إلى جسر «كاني» بين شارع الجمهورية وحي «شون- دو- كورس». ويعتبر شارع «كلو-دي-بار»، الذي يمتد من طريق «لوهافر» إلى جسر «كاني» مخترقًا المركز، المحور الرئيسي لهذا الحي. كان المحل التجاري لوالديَّ يقع في المنطقة السفلى لهذا الشارع (كنا نقول «الصعود إلى المدينة»)، بزاوية زقاق ذي أرضية حجرية يمتد إلى شارع الجمهورية. وهذا ما أتاح إمكانية الذهاب إلى المدرسة الخاصة، هناك في المركز، عبر هذا الشارع أو شارع «كلو-دي-بار» لأنهما متوازيان. ولكنهما يتناقضان في كل شيء. فشارع الجمهورية، الأوسع والمعبد والمحفوف بالرصيف من أوله إلى آخره، ترتاده السيارات والحافلات المتوجهة إلى الساحل والشواطئ على بعد خمس وعشرين كلم. في جزئه الأعلى تقوم فيلات مهيبة لا يعرف أحدٌ سكانَها ولو «بالنظر». ووجود ورشة لـ«ستروين» بجوارها بضعة منازل تطل على الشارع، وورشة لإصلاح الدراجات في المنطقة السفلى لا ينزع عن هذا الشارع طابعه الراقي. قبل بلوغ الجسر، إلى اليمين، خلف السكة الحديد، يوجد حوضان ضخمان، واحد منهما به ماء أسود، الآخر به ماء مخضر بسبب الرغوة التي على سطحه، مع ممر ترابي بينهما. هذا هو مستنقع السكة الحديد.. مكان الموت في «إ».. كانت النساء يقصدنه من الأطراف البعيدة للمدينة للغرق. وبما أنه لا يمكن رؤية هذه

البركة من شارع الجمهورية الذي يفصلها عنه منحدرٌ يرتفع في طرفه سياج كثيف من النباتات، فهي تبدو كأنها ليست جزء منه.

شارع «كلو-دي-بار» ضيق. غير متناسق، بلا أرصفة، بمنحدرات حادة ومنعرجات صعبة، به حركة سير خفيفة، ويرتاده بالخصوص عدد من العمال على متن دراجاتهم، وهم يسلكونه مساء للوصول إلى طريق «لوهافر». بعد الظهر تسود فيه تلك السكينة والضوضاء البعيدة التي تميز البادية. به بعضُ الفيلات التي يملكها مقاولون أقاموا ورشاتهم بجوارها، والكثيرُ من المنازل العتيقة المتجاورة والمكونة من طابق أرضي فقط والتي يقطنُ بها المستخدمون والعمال. ويؤدي شارع «كلو-دي-بار» ـ عبر أربعة مسالك ملتوية، وضيقة لا تمسح بمرور السيارات ـ إلى حي «شون-دو-كورس» الشاسع الذي يمتد إلى غاية حلبة سباق الخيول، والذي تهيمن عليه الكتلة الضخمة لدار الرعاية. حي كئيب تظلله السياجات النباتية والحدائق المقامة أمام منازل عتيقة يتجمع فيه «الضعاف اقتصاديا» والأسر الكثيرة العدد والشيوخ، أكثر من المناطق الأخرى. من شارع الجمهورية إلى مسالك حي «شون-دو-كورس».. في أقل من ثلاثمائة متر ننتقل من الرخاء إلى الفاقة.. من الحاضرة إلى الريف.. من السعة إلى الضيق.. من أناس محميين نجهل عنهم كل شيء إلى آخرين نعرف حق المعرفة كم يتقاضون من الإعانات، وما يأكلون ويشربون، ومتى يخلدون إلى النوم.

(إن الانكبابَ لأول مرة ـ دون التقيد بأي قاعدة ما عدا

الدقة ـ على وصف شوارع لم أفكر فيها أبدًا بل كنت أرتادها فقط طيلة طفولتي، يرومُ إماطة اللثام عن التراتبية الاجتماعية الكامنة فيها. إحساس بأنني أدنس مقدسًا: تعويضُ الطوبوغرافيا الناعمة للذكريات، وكلها انطباعاتٌ وألوانٌ وصورٌ (فيلا «إدلين».. نبات الحلوة الزرقاء.. أشجار التوت بحي «شو-دو-كورس») بأخرى ذات خطوط حادة ترفع عنها سِحْرَها، وإن كانت حقيقتُها الساطعةُ لا تقبل الشك حتى من طرف الذاكرة ذاتها: في ٥٢ كان يكفيني النظرُ إلى الواجهات العالية خلف الأرضيات المعشوشبة، وإلى الممرات المفروشة بالحصى لأدرك أن سكانها ليسوا مثلنا).

«ديارنا» تعني أيضًا

١ الحي

٢ البيت والمحل التجاري لوالديَّ

توجد «البقالة ـ المقهى ـ دكان الخردة» ضمن مجموعة من المنازل الوطيئة المبنية جزئيا من الخشب الأصفر والداكن، والمحاطة في طرفيها ببنايتين حديثتين من الآجُر. وهي من طابق واحد وشيدت على أرض تمتد من شارع الجْمهورية إلى شارع «كلو-دي-بار». كنا نعيش في الجزء المفتوح على هذا الأخير، مع بستانيٍّ له الحق في العبور من فنائنا. أما البقالة، التي توجد فوقها الغرفة الوحيدة، فكانت تحتل الجزء الجديد المشيد

بالآجُر. المدخل الرئيسي يطل، مع إحدى الواجهتين، على شارع «كلو-دي-بار». الواجهة الثانية تطل على الفناء الذي ينبغي عبوره للوصول إلى المقهى الموجود في الجزء القروي القديم من المبنى. انطلاقًا من البقالة، تتوالى أربعة فضاءات: المطبخ، صالة المقهى، مخزن النبيذ، المستودع الذي نسميه «الغرفة الخلفية». كل هذه الفضاءات تتواصل فيما بينها وتنفتح على الفناء (باستثناء المطبخ، العالق بين البقالة والمقهى). لم يكن أي جزء من الطابق الأرضي يدخل في إطار الفضاء الخاص بالأسرة، حتى المطبخ الذي كان في الغالب ممرا للزبائن بين البقالة والمقهى. غياب أي باب بين المقهى والمطبخ كان يتيح لوالدِي البقاء على تواصل مع الزبائن، وكان يخول لهؤلاء الاستمتاع بالراديو. في المطبخ يوجد سلم لولبي يقود إلى فضاء بسقف مائل، يفضي يسارا إلى الغرفة، ويمينًا إلى حجرة التخزين. بهذا الفضاء العلوي يوجد سطل لقضاء الحاجة مخصص لنا، أنا وأمي. وَالِدِي يلجأ إليه ليلاً فقط (نهارا يستعمل ـ مثل الزبائن ـ المِبْوَلَ الموضوع في الفناء، وهو عبارة عن برميل محاط بألواح خشبية). نستخدم المرحاض الموجود في حديقة البيت صيفًا، أما الزبائن فيقصدونه طيلة السنة. كنت أقرأ وأنجز التمارين المدرسية في الفضاء الذي يقود إليه السلم اللولبي والمضاء بمصباح، باستثناء الأيام التي يكون فيها الجو صحوا، إذ يسمح لي إذاك بالجلوس في الخارج. من أعلى السلم كنت أرى كل شيء عبر القضبان دون أن يلمحني أحد.

يشكل الفناء ممرًا تُرابيًا واسعًا يفصل بين البيت ومبان صالحة للأعمال التجارية. خلف هذه الأخيرة، يوجد مستودع به أقفاص عديدة، وفضاء للغسيل، والمرحاض، وقن الدجاج، وفضاء معشوشب صغير.

(في هذا المكان كنتُ، مساء أحد أيام نهاية أيار أو بداية حزيران، قبل حدوث ذلك المشهد. كنت قد أنجزت تماريني. كان الطقس منعشًا. كان يغمرني شعور مفعم بالمستقبل. الشعور ذاته الذي استبد بي وأنا أغني بملء صوتي في الغرفة «مكسيكو» و«رحلة إلى كوبا».. ذلك الشعور الذي تمنحه الحياة الممتدة أمام المرء بكل ما يكتنفها من غموض).

لما نكون عائدين من المدينة، ونلمح البقالة المتقدمة قليلاً عن مستوى البناية، كانت أمي تقول «ها نحن وصلنا إلى القصر» (عبارة للفخر بقدر ما هي للسخرية).

كان المحل التجاري مفتوحًا طيلة السنة من السابعة صباحًا إلى التاسعة مساء بدون انقطاع، ما عدا بعد ظهر يوم الأحد، إذ تظل البقالة مغلقة إلى غاية بداية الليل، بينما يعاد فتح المقهى اِبتداء من السادسة مساء. كانت حركةُ الزبائن، ونمطُ حياتهم وعملهم يتحكمان في جدولنا الزمني، سواء في المقهى (ذكوري) أو في البقالة (أنثوي). يسود بعض الهدوء بعد الظهر يخفف من الجلبة. تستغله أمي بالتالي لترتيب السرير،

والصلاة، ورَتْقِ زِرٍّ ما. والدي يذهب للاهتمام ببستان خُضَرٍ كبيرٍ اكتراه غير بعيد عن البيت.

ينتمي كل زبائن والديَّ إلى الأطراف الدنيا لشارعي «كلو-دي-بار» و«الجمهورية»، وإلى حي «شون-دو-كورس»، ومنطقة شبه قروية، شبه صناعية تمتد إلى ما بعد خط السكة الحديد، ويشكل حي «كُورْدُورِي» جزء منها.. هذا الحي الذي استمد اسمه من مصنع للحبال سبق لوالديّ أن اشتغلا فيه وهما شابان، وقد حلت مكانه، منذ الحرب، ورشةٌ للنسيج ومصنعٌ متخصصٌ في صناعة أقفاص الطيور. هذا الحي عبارة عن شارع واحد يمتد بموازاة السكة الحديد ويفضي، بعد المصانع، إلى حقل تتراكم فيه المئات من الألواح الخشبية المخصصة لصناعة الأقفاص. إنه حي العائلة: والدتي عاشت فيه منذ فترة المراهقة إلى أن تزوجت. ما زال يعيش فيه أحد إخوتها فضلاً عن شقيقتَيْهَا ووالدتِها. والبيت الذي كانت تعيش فيه جدتي، وإحدى خَالَتَيْ وزوجُها، كان مطعمَ مصنعِ الحبالِ ومستودعَ ملابس عماله. وهو عبارة عن كوخ كبير مرتفع قليلاً عن الأرض ومكون من خمس غرف صغيرة. أرضيته غير ثابتة وكثيرة الصدى. بلا كهرباء. في اليوم الأول من كل سنة، تجتمع كل العائلة في غرفة جدتي، الكبار حول المائدة يشربون ويغنون، والصغار على السرير. في طفولتي الأولى، كانت أمي تأخذني كل أحد لأُقَبِّلَ جدتي، ثم نزور بيت خالي «جوزيف»، حيث كنت ألعب مع بناته

الأرجوحة على الألواح الخشبية، أو نذهب لمشاهدة مرور القطارات المتوجهة إلى «لوهافر»، ملوحين لها بأيدينا، أو نقوم بـ«إزعاج الأطفال» الذين نصادف في طريقنا. يبدو أن زياراتِنا قَلَّت أكثر فأكثر في ٥٢.

إن الانحدار من وسط المدينة إلى حي «كلو-دي-بار» ثم حي «لا كُورْدُورِي»، يعني الانزياح من فضاء يتقن فيه الناس الحديث بالفرنسية إلى آخر يتحدثونها فيه بشكل سيء، أي يتكلمون بفرنسية ممزوجة بالعامية بدرجات متفاوتة حسب السن، والمهنة، والرغبة في الرقي. وإذا كانت العامية خالصة تقريبًا لدى المسنين مثل جدتي، فإنها تنحصر في بعض التعابير، وفي نبرة الصوت لدى الفتيات اللواتي يشتغلن في المكاتب. ويتفق الجميع على أن هذه العامية «قبيحة وعتيقة»، حتى أولئك الذين يتحدثون بها كثيرًا. ويبررون ذلك بالقول «نعرف جيدًا كيف يجب علينا الحديث ولكن الأمور تكون أسرع هكذا». فالحديث بطريقة جدية يفترض بذلَ مجهود، البحثَ عن كلمة أخرى غير تلك التي وردت إلى الذهن تلقائيًا، الحديثَ بصوت أخف، لبق، حذر كأننا نحمل أشياء هشة. معظم الناس المتقدمين في السِن لا يعتبرون «الحديث بالفرنسية» ضرورة، ويرون أن ذلك يليق أكثر بالشباب. كان والدي يقول دائمًا «أنا لدينا» أو «أنا كنا»، وحين أصحح له يقول بتودد، مع التشديد على المقاطع اللفظية «نحن لدينا»، مضيفًا بنبرته المعتادة «كما تشائين»،

ملمحا بهذا التنازل إلى أن الحديث المنمق لا يكتسي عنده أي أهمية.

في ٥٢، كنت أكتب بـ«فرنسية جيدة»، ولكن كنتُ أقول، بدون شك، «من أينك تعود؟» و«أتنظف» بدلاً من «أغتسل»، تمامًا مثل والديَّ بما أنه كان لنا التوظيف ذاته للعالم المحيط بنا. هذا العالم الذي يتشكل من تصرفاتنا أثناء الجلوس، والضحك، وطريقة الإمساك بالأدوات، والكلمات التي تحدد ما نفعله بأجسادنا وبالأشياء.

باختصار، كل أشكال:

ـ عدم تضييع الطعام، والاستمتاع به ما أمكن: إعداد قطع صغيرة من الخبز بجانب الصحن، لغمسها في المرق.. تناول البطاطا المطحونة الساخنة من الأطراف أو النفخ عليها حتى تبرد قليلًا.. إمالة الصحن قليلًا لتمكين الملعقة من أخذ كل الحساء المتبقي أو رفعه باليدين إلى الفم لشربه.. الشرب لبلع اللقمات.

ـ الحرص على النظافة دون تضييع الكثير من الماء: استعمال طشت واحد للوجه، وآخر للأسنان واليدين، وثالث للساقين في الصيف لأنهما تتسخان سريعًا.. ارتداء ملابس لا تظهر عليها الأوساخ سريعًا.

ـ قتل الحيوانات التي نستهلك وإعدادها بحركات واثقة وصارمة: لكمة قوية خلف أذني الأرنب، غرز مقص في رقبة

الدجاجة المثبتة بين الفخذين، قطع رأس الوزة بضربة الساطور المعقوف.

ـ التعبير عن قلة الاعتبار بصمت: هز الكتفين، الاستدارة وضرب المؤخرة بقوة.

التصرفات اليومية التي تميز النساء عن الرجال:

ـ تقريب المكواة من الخد للتأكد من حرارتها، الجثو لفرك الأرضية، الساقان منفرجتان عند قطف أكل الأرانب، شم جواربنا وملابسنا الداخلية مساء.

ـ البصق في الكفين قبل الإمساك بالمجرفة، وضع سيجارة خلف الأذن، الجلوس على الكرسي مقلوبًا، طقطقة السكين قبل وضعه في الجيب.

تعابير الكياسة:

من دواعي السرور.. تفضل بالجلوس، أثمنتنا مناسبة.

الجمل التي تربطُ بشكل غامض الجسدَ بالمستقبل، ببقية العالم:

ـ قُلْ أمنيةً.. فقد سقط لك رِمْش على الخد..
أذني اليسرى تصفر، إذن أحدهم يذكرني بخير..

أو تربطه بالطبيعة:

قدمي تؤلمني، إنها ستمطر.

التهديدات الودودة أو الصارمة الموجهة للأطفال:

سوف أقص أذنيك.. انزل من هناك، حتى لا يكون نصيبك الصفع.

التعابير الساخرة التي تبعد كل مظاهر الرقة والحنان:

حافظ جيدًا على شبابك، فشبابي أنا يغيض..

مداعبة الكلاب تصيب بالبراغيث... إلخ

بسبب لون الغبار الناتج عن الهدم وإعادة البناء في فترة ما بعد الحرب.. بسبب الأفلام والكتب المدرسية التي كانت بالأبيض والأسود.. بسبب السترات الكندية والمعاطف الداكنة، أرى عالم ٥٢ غارقًا في اللون الرمادي، مثل بلدان شرق أوروبا في الماضي. والحال أنه كانت هناك أيضًا الورود والياسمين البري ونبات الوستارية التي تفيض عن سياجات الحي، الفساتين الزرقاء المزينة بالأحمر مثل فستان أمي. وكانت جدران المقهى مغطاة بورق مزخرف بأزهار وردية. كان الجو مشمسًا يوم الأحد الذي حدث فيه ذلك المشهد.

هو فقط عالم صامت مليء بالطقوس. تقوم فيه الأصواتُ المعزولة ـ المرتبطةُ بالتصرفات والأنشطة التي يعلم بها الجميع ـ بتحديد الساعة والموسم: صلاة «أنجليوس» التي تعلن ميقات

استيقاظ المسنين ونومهم، صفارة مصنع النسيج، أصوات السيارات يوم السوق، نباح الكلاب، والصوت المخنوق للمجرفة وهي تُقَلِّبُ الأرض في فصل الربيع.

تنساب أيام الأسبوع تحت اسم «يوم...» وتُحدَّدُ تبعًا للنشاطات الجماعية والعائلية، وبرامج الراديو. الاثنين (يوم ميت): بقايا طعام أمس والخبز البائت، برنامج «Crochet radiophonique» على أمواج إذاعة «لوكسمبورغ». الثلاثاء: الغسيل، برنامج «Reine d'un jour». الأربعاء: يوم السوق، ملصق الفيلم المقبل بسينما «لُوزْوَا»، برنامج المسابقات «quitte ou double». الخميس: يوم راحة، صدورعدد «Lisette» (مجلة اليافعين). الجمعة: السمك. السبت: الأعمال المنزلية المهمة، غسل الرأس. الأحد: يوم القداس ـ الطقس الرئيسي الذي تُرَتَّبُ كلُّ النشاطات الأخرى قياسًا عليه ـ تغيير الملابس، تجريب زينة جديدة، حلويات المخبز و..«تلك الإضافة التي فوق الحساب».. باختصار، الواجبات والمُتَع.

كل مساء طيلة الأسبوع، على الساعة السابعة وعشرين دقيقة: المسلسل الإذاعي «عائلة دوراتون».

وكان زمن الحياة مقسمًا إلى «فترات عمرية»: سِنُّ القربان المقدس والحصول على ساعة.. سنُّ أول تسريحة مجعدة للشعر بالنسبة للبنات وأول بذلة للذكور..

سِنُّ العادة الشهرية والحق في ارتداء الجوارب الطويلة..

سِنُّ احتساء النبيذ في الولائم العائلية، تدخين سيجارة، البقاء في حضرة الكبار حين يحكون القصص الخليعة..

سِنُّ الانخراط في العمل، والذهاب إلى الحفلات الراقصة.. سِنُّ «الاختلاط» بالجنس الآخر..

سِنُّ التجنيد.. سِنُّ مشاهدة الأفلام الساخنة..

سِنُّ الزواج والأبناء

سِنُّ ارتداء الأسود

سِنُّ التوقف عن العمل

الموت.

هنا كل شيء يُنَفَّذ، ولا شيء يخضع للتفكير.

لم يكن الناس يتوقفون عن الذكريات. عبارتا «قبل الحرب» و«إبان الحرب» كانتا دائمًا مُسْتَهَلَّ الكلام. لا يمكن أن تجتمع العائلة أو الأصدقاء دون الإشارة إلى «الهزيمة»[1]، والاحتلال والقصف. كان كل واحد يساهم في إعادة تشكيل تلك الملحمة، واصفًا مشاهد الاضطراب أو الرعب التي عاشها، مذكرًا ببرد شتاء ٤٢، اللفت السويدي، صفارات الإنذار، مع

(١) هزيمة وانهيار الجيش الفرنسي أمام تقدم قوات هتلر في بداية صيف ١٩٤٠.

تقليد صوت صواريخ الـV2 وهي تخترق السماء. كان «النزوح» يقدح الحكايات المفعمة بالعواطف، والتي تنتهي عادة بـ«في الحرب المقبلة، سأبقى في بيتي» أو «لا يجب أن يتكرر هذا أبدًا». وكانت تندلع شجارات في المقهى بين الذين تعرضوا للغازات في حرب ١٤ وأسرى حرب ٣٩ ـ ٤٥، الذين يوصفون بـ«المختبئين».

مع ذلك لا يتوقف الجميع عن الحديث عن «التقدم» كأمر محتوم لا يمكن ولا يجب مقاومته.. هذا التقدم الذي لا تتوقف علاماته عن التكاثر: البلاستيك، جوارب النيلون، قلم الحبر الجاف، دراجة «فيسبا»، الحساء المعلب، والتعليم للجميع.

كنت أعيش، وأنا في الثانية عشرة، في كنف قوانين وقواعد هذا العالم، ولم أكن أتصور أبدًا وجود أخرى.

كان من واجب الوالدين الجادين إصلاح وتهذيب الأطفال الذين تغلب عليهم الشقاوة. وكانت كل أنواع الضرب مباحة، من الصفع إلى السوط. لم يكن هذا يعني قسوة ولا حقدًا، بشرط الحرص على معاملتهم بدلال مع عدم تجاوز الحدود المِعقولة معهم. غالبًا ما كان أحد الأبوين ينهي حكايةَ غَلْطَةِ الطفلِ وعقابِه بـ«لو كان بيدي، لتركته هناك!»، وهو كله فخر لأنه: خص الطفل بعقاب عادل، وفي الوقت ذاته قاوم الإفراط في الغضب الذي كان يستحقه سلوكه.

خوفًا من «تركي هناك»، كان أبي يرفض دائمًا أن يرفع يده عليَّ، ولا حتى توبيخي، تاركًا هذه المهمة لأمي.. أنتِ، الوقحة!، الكريهة! الحياة سوف تربيكِ!

كان الجميع يراقبون الجميع. كان يجب قطعا معرفة كل شيء عن حياة الآخرين ـ لحكيها ـ وتحصين حياتنا، حتى لا تكون موضوع أي حكاية. إنها حقًا استراتيجية معقدة بين «استخراج الدود» من أنف شخص ما، ولكن بالمقابل الحرص على عدم استخراجها من أنفك، فقط «قول ما نريد السماحَ بتسريبه». كانت الهواية المفضلة للناس هي التلصص على بعضهم بعض. كنا نحضر أمام السينما وقت الخروج، وفي المحطة عند وصول القطارات مساء. أي تجمع للناس كان مبررًا للالتحاق بهم. كان موكب المشاعل ومرور سباق الدراجات مناسبة للاستمتاع بمشاهدة الحاضرين وكذلك بمتابعة ما يجري، ثم بعد ذلك العودة إلى البيت واستعراض من كان حاضرا وبرفقة من. كنا نراقب السلوك، ونفكك التصرفات بما فيها تلك الصغيرة الخفية.. كنا نعكف على جمع الإشارات التي يشكل تراكُمها وتأويلُها قِصصَ الآخرين. إنها رواية جماعية، يساهم فيها كل واحد بجزء من الحكاية، بتفصيل معين، لتشكيل المعنى العام الذي يمكن تلخيصه ـ حسب نوعية الأشخاص المجتمعين في البقالة أو حول طاولة بالمقهى ـ في: «إنه شخص خير» أو «لا قيمة له».

كانت الأحاديث تصنف الوقائع وتصرفات الناس، وسلوكهم، في خانتي «الخير» و«الشر».. «المباح» ـ بل حتى «المستحسن» ـ و«غير المقبول». كان السخط العارم ينزل على المطلقين، والشيوعيين، والذين يعيشون معًا بدون زواج، والأمهاتِ العازبات، والنساءِ اللواتي يشربن، والمجهضاتِ، واللواتي حُلقت رؤوسهن عند التحرير[1]، واللواتي يهملن بيوتهن.. إلخ. السخط «المعتدل» كان ينزل على الفتيات الحوامل قبل عقد القران، والرجال الذين يلهون في المقهى (اللهو يبقى امتيازًا للأطفال والشباب)، وعلى سلوك الذكور عمومًا. بالمقابل كان الناس يمجدون الإقدام في العمل، وهذا يشفع لغض الطرف عن بعض السلوك: يشرب ولكنه ليس كسولاً.

كان التمتع بالصحة ميزة: «ليْسَتْ في صحة جيدة».. كانت هذه تهمة بقدر ما هي تعبير عن الشفقة. على كل حال، ينظر إلى المرض ـ وهو مرتبط بشكل غامض بذنب ما ـ كعلامة على غياب يقظة الفرد اتجاه مصيره. بصفة عامة، يحصل الآخرون بصعوبة على «شرعية» المرض، فهم متهمون دومًا بالتمارض.

في الحكايات، كان الرعب ينبثق بتلقائية ـ بل وبالضرورة ـ للتحذير من شر لا يمكن على الأرجح اتقاؤه، مرضًا كان أو حادَثًا. وبفضل تفصيل صغير يتم تثبيت صورة يستحيل الفكاك

(١) بعد تحرير فرنسا من الاحتلال الألماني كان الفرنسيون يعمدون إلى حلق رؤوس النساء اللواتي كن يتعاونَّ مع المحتل.

منها: « جلسَتْ على أفعيين».. «لديه عظم مهترئ في الدماغ». يتم التركيز دائمًا على الرعب الحاصل بدل المتعة المُبْتَغَاة: كان الأطفال يلعبون في اطمئنان بشيء لامع. كانت قذيفةً!... إلخ

كان إظهار العواطف ـ التأثر بسرعة ـ يثير الدهشة والفضول. من الأفضل دائمًا قول: هذا لم يؤثر فيَّ البتة.

كان الناس يُقَيِّمُون الأشخاصَ وفقًا لقدرتهم على الألفة والمؤانسة. كان يجب على المرء أن يكون بسيطًا، صريحًا، ومؤدبًا. لم يكن ينظر بعين الرضا إلى من يبحثون عن العزلة، وإلا نعتوا بـ«الدب». الميل إلى العيش وحيدًا ـ ينظر بازدراء إلى الرجال غير المتزوجين والعوانس ـ وعدم الحديث إلى الآخرين كان يعتبر رفضًا لسلوك من صميم الكرامة الإنسانية: إنهم يعيشون عيشة الحيوانات!

كان هذا التصرف يكشف كذلك أن أصحابه لا يأبهون بالأهم: حياة الآخرين.. يعني.. نوع من الفظاظة. بيد أن التردد بكثرة على الجيران، الإفراط في المواظبة على لقاء الأصدقاء، «أن تكون معلقًا دائمًا بأهداب» هذا أو تلك، كان تصرفًا ذميمًا: يجسد غياب الكبرياء.

كان التحلي بالكياسة هو القيمةُ المهيمنة، المبدأُ الأولُ للتقييم المجتمعي. وتتجلى على سبيل المثال في:

رد الجميل، الدعوة إلى وليمة، هدية.. الحرص على مراعاة الأولوية حسب العمر عند تقديم تهاني رأس السنة.. عدم إزعاج الناس سواء بزيارتهم دون إخبارهم مسبقًا، أو بتوجيه الأسئلة المباشرة إليهم.. عدم إهانتهم برفض دعوتهم وهم يمدون إليك قطعة بسكوت.. إلخ. الكياسة تتيح علاقات جيدة مع الناس ولا تفتح المجال للتعاليق: إن عدم استراق النظر إلى داخل البيوت عند المرور من الفناء المشترك لا يعني أننا لا نرغب في التلصص بل يعني عدم الرغبة في انكشاف أمرنا ونحن نفعل ذلك.

كانتِ التحايا في الشارع.. قولُ صباح الخير أو رفضها، والطريقةُ التي يتم بها هذا الطقس ـ ببرودة أو بحرارة، التوقف والمصافحة، قول كلمة قصيرة أو مواصلة الطريق ـ محطَّ انتباه دقيق، والكثير من التخمينات: لعله لم يرني.. لعله في عجلة من أمره. لم يكن واردًا الصفح عن الذين ينكرون وجود الآخرين بعدم الانتباه إليهم.

لا ضرورة للكياسة، وهي درع للحماية، بين الزوج وزوجته، بين الآباء والأبناء، بل يمكن اعتبارها في هذه الحالة نفاقًا وإساءةً. اما الفظاظة والغلظة والصراخ فكانت الأشكال الطبيعية للتواصل داخل الأسر.

«أَنْ نُشْبِهَ الجميع» هو الغايةُ.. المِثَالُ المبتغى. فالاختلاف عن الآخرين يؤخذ على أنه غرابة، بل علامة على نوع من الجنون. كان يطلق على كل كلاب الحي «ميكي» أو «بوبي».

كنا نعيش، في المقهى ـ البقالة، وسط «الناس»، كما كنا ننعت الزبائن. وكان هؤلاء يشاهدوننا ونحن نأكل، ونذهب إلى القداس، إلى المدرسة، يسمعوننا ونحن نغتسل في ركن من أركان المطبخ، ونحن نتبول في السطل المخصص لذلك. هذا الانكشاف الدائم كان يفرض علينا تَبَنِّي سلوك محترم (عدم تبادل الشتائم، عدم التلفظ بالكلام البذيء، عدم ذكر الآخرين بسوء)، وتجنب إظهار العواطف.. غضبًا أو حزنًا، وإخفاء كل ما من شأنه أن يثير الرغبة، أو الفضول أو يمكن أن «يُنقل» إلى الأخرين. كنا نعرف الكثيرَ عن الزبائن، مواردَهم، نمطَ عيشهم. ولكن بالمقابل كان هناك اتفاق على ألا يعرفوا أي شيء عنا، أو أقل ما يمكن. بالتالي، فـ«أمام الناس» يُمنع الكشفُ عن ثمن الحذاء الذي اشترينا، أو الشكوى من ألم البطن، أو جردُ النقاط الجيدة في المدرسة. وكان من عادتنا رميُ قطعة من الثوب على الحلوى القادمة من المخبز.. إخفاءُ زجاجةَ النبيذ تحت المائدة عند دخول أحد الزبائن.. انتظارُ غياب الزبائن للشجار، وإلا.. «ماذا سيقولون عنا؟».

من فصول «قانون الإتقان التجاري» التي كانت تهمني:

قول صباح الخير بصوت عال وواضح كلما دخلتُ إلى البقالة أو المقهى، أو كلما مررتُ بهما.

أن أكون أول من يرحب بالزبائن حيثما ألتقيهم.

عدم إفشاء ما أعرفه عنهم، عدم ذكرهم بسوء، لا هم ولا التجار الآخرين.

عدم الكشف أبدًا عن مداخيل اليوم.

عدم الوثوق بالنفس كثيرًا، وعدم التباهي.

كنت أعرفُ تكلفةَ أي تهاونٍ في التقيد بهذه القواعد: سنخسر الزبائن بسببك.. وعواقبَ ذلك: الإفلاس.

إن الكشف عن القوانين التي كانت تحكم عالمي وأنا في الثانية عشرة، يعيد إلي، بشكل عابر، الإحساسَ المنفلت بذلك الثقل على النفس.. بذلك الاختناق الذي يغمرني في المنام. أجدُ الكلماتِ التي استعدتُ غامضةً.. أجدها أحجارًا يستحيل تحريكها. كلماتٌ خاليةٌ من أي صورة واضحة. خالية حتى من المعنى، ذلك المعنى الذي يمكن أن يتيحَه لي المعجم. كلماتٌ لا سمو فيها، ولا أحلام حولها: مجرد مادة. كلماتٌ لا يمكن فصلها عن أشياء طفولتي وناسِها. لا يمكنني اللعب بها. إنها مثل «جدول التوزيع الطبيعي» في الرياضيات.

(لن يكون أبدًا للكلمات التي كانت تحلق بي في الأحلام في ٥٢ ـ «ملكة غولكوند»[١]، «شارع الغروب»[٢] «آيس كريم»، «بامبا» ـ أي وزن. فقد حافظت على الخفة والغرابة التي كانت لها في الماضي، لما كانت تحيل فقط على أشياء مجهولة. كذلك النعوت العديدة التي كانت الروايات النسائية مولعة بها: طلعة متغطرسة، نبرة كئيبة، متعجرفة، متكبرة، ساخرة، حادة.. نعوت لم يخامرني الشك أبدًا في استحالة إطلاقها على شخص حقيقي في محيطي. يبدو لي أنني أسعى دومًا للكتابة بتلك اللغة الملموسة لذلك الزمن، وليس بكلمات وتراكيب لغوية لم تكن تسعفني، ولم أكن لأملك ناصيتها آنذاك. لن أحس أبدًا بسحر الاستعارات وبهجة الأسلوب).

لم تكن لدينا تقريبًا أي كلمات للتعبير عن العواطف: «أحسستني مغفلًا» للتعبير عن خيبة الأمل.. «كنت في حالة سيئة» للتعبير عن الاستياء.. «أحس بالأسى» للتعبير عن الندم على ترك

---

(١) «ألين، ملكة غولكوند» (ALINE, LA REINE DE GOLCONDE) حكاية شعبية شهيرة من تأليف «ستانيسلاس جون دو بوفلي» (STANISLAS JEAN DE BOUFFLERS) المعروف أكثر باسم «الفارس دو بوفلي» (١٧٣٨ ـ ١٨١٥). وقد تحولت إلى أوبريت معروفة عرضت لأول مرة في ١٧٦٦.

(٢) «شارع الغروب» (SUNSET BOULEVARD) فيلم أمريكي شهير ظهر في ١٩٥٠ ويعتبر من كلاسيكيات السينما العالمية.

قطعة من الحلوى في الصحن، وعن الحزن عند فقدان الخطيب.. وطبعًا تعبير «الإصابة بالحزن والجنون». كانت لغة العواطف هي لغة أغاني «لويس ماريانو» و«تينو روسي»[١].. لغة روايات «ديلي»[٢]، ومسلسلات مجلتي «Petit Echo de la mode» و«La vie en fleurs».

---

(١) «لويس ماريانو» (LUIS MARIANO) (١٩١٤ ـ ١٩٧٠) مغني أوبرا ذو أصول باسكية، كان شهيرًا في كل من فرنسا وإسبانيا وأمريكا اللاتينية وكندا.
«تينو روسي» (TINO ROSSI) (١٩٠٧ ـ ١٩٨٣) مغن وممثل فرنسي.

(٢) «ديلي» (DELLY) الاسم المستعار لـ«جان ماري بوتيجون دو لاروزيير» (JEANNE-MARIE PETITJEAN DE LA ROSIERE) (١٨٧٥ ـ ١٩٤٧) وشقيقها «فريدريك» (FREDERIC) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٩)، وقد اشتهرا بتأليف قصص الغرام التي حظيت بشهرة كبيرة إلى غاية الثمانينيات من القرن الماضي.

سأُعِيدُ الآن بناءَ عالم المدرسة الخاصة الكاثوليكية، حيث كنتُ أقضي معظم وقتي، والتي كانت بدون أدنى شك تهيمن على حياتي بجمعها ومَزْجِها، بشكل لا انفصام فيه، بين ضرورتين، مَثَلَيْن: الدين والمعرفة.

كنتُ الوحيدةَ ـ من بين كل أفراد العائلة ـ المسجلةَ في مدرسة خاصة. فكل أبناء وبنات الأقارب يرتادون المدرسة العمومية، وكذلك بنات الحي باستثناء اثنتين أو ثلاث، أكبر سنًا مني.

كانت البنايةُ الضخمةُ للمدرسة الداخلية المبنية بالآجُر الأحمر الداكن تَحْتَلُّ جانبًا كاملاً من شارع هادئ وكئيب في وسط «إ». في الجهة المقابلة، تنتصب الواجهة العمياء لمستودعات تابعة لمصلحة البريد والهاتف والتليغراف على الأرجح.

لا نافذة في الطابق الأرضي. بعض الكُوات الدائرية في الأعلى لمرور ضوء النهار، وبابان مغلقان على الدوام. الأول مخصص لدخول التلميذات وخروجهن، ينفتح على فناء مغلق

وبه تدفئة، والذي يفضي إلى الكنيسة الصغيرة. الباب الآخر، البعيد عن الأول، ممنوع عن التلميذات، ويجب قرع الجرس حتى تسمح لكِ راهبة بالدخول إلى فناء صغير، أمام مكتب المديرة وصالة الاستقبال. نوافذ الطابق الأول كانت للأقسام والممر. أما نوافذ الطابق الثاني وكوات الدور العلوي فكانت مغطاة بستائر بيضاء سميكة. هناك، كانت عنابر النوم. كان الإطلالُ من أي نافذة ممنوعًا.

على خلاف المدرسة العمومية، البعيدة عن مركز المدينة وحيث يمكن رؤية التلاميذ يلعبون في ساحة شاسعة خلف السياج، لم يكن أي شيء في المدرسة الداخلية في متناول العين من الخارج. كانت فيها ساحتان للاستراحة. الأولى مرصفة، لا تصلها الشمس، مغطاة بأغصان شجرة سامقة، وكانت مخصصة للتلميذات المعدودات في الجزء المسمى «المدرسة الحرة»، التي تضم اليتيمات المنتميات إلى مؤسسة قريبة من مقر البلدية، وبنات الأسر التي لا تملك الإمكانات المادية للتكفل بمصاريف «النظام الخارجي». تشرف عليهن معلمة واحدة من السنة التحضيرية إلى السنة الأولى إعدادي، التي لا يبلغنها إلا نادرًا، وينتقلن مباشرة إلى «التعليم الخاص بالتدبير المنزلي»[1].

(١) نظام تعليمي كان معتمدا في المدارس الفرنسية في الماضي، يتم فيه تعليم الفتيات كيفية تدبير شؤون البيت.

أما الساحة الأخرى، وهي شاسعة وتغمرها الشمس، ومخصصة للتلميذات اللواتي يؤدين المصاريف ـ بنات التجار والحرفيين والمزارعين ـ فكانت تمتد على طول صالة الأكل والفناء الذي نعبر للالتحاق بالأقسام في الطابق الأول. كان يحدها من جانبِ الكنسيةُ ذاتُ النوافذ المسيجة وفي الجانب الآخر الجدارُ الذي أقيمت على جانبيه المراحيض المتسخة، والذي كان يفصلها عن «المدرسة الحرة». في عمق هذه الساحة وبالتوازي مع بناية المدرسة، يمتد ممر محفوف بأشجار الزيزفون الكثيفة التي تلهو تحت ظلالها الصغيرات بلعبة الحجلة، وتُرَاجِع الكبيراتُ دروسَهن. خلف هذا الممر الشجري، يوجد بستان للخضراوات وشجيرات الفواكه، لا يظهر حَدُّهُ ـ وهو جدار عال ـ سوى في الشتاء. كانت الساحتان تتواصلان عبر منفذ بلا باب في الجدار الذي يضم في جانبيه المراحيض. ولم تكن تلميذات المدرسة الحرة وعددهن حوالي عشرين يلتقين بالمائة والخمسين إلى مائتي تلميذة بالمدرسة الداخلية سوى في الحفلات وقداس القربان. ولا يُحَدِّثُ بعضهن بعضا. كانت تلميذات المدرسة الداخلية يتعرفن على بنات المدرسة الحرة من ملابسهن التي كانت في بعض الأحيان لهن، ولكن تخلى عنها آباؤهن لصالح هؤلاء المعوزات.

كان الرجالُ الوحيدون الذين لهم الحق في الدخول إلى المدرسة والتجول فيها هم الرهبانُ والبستانيُ الذي لم يكن

يتجاوز الأقبية أوالحديقة. أما الأشغال التي تتطلب حضور العمال فيتم إنجازها إبان عطلة الصيف. كانت المديرةُ وأكثرُ من نصف المدرسات راهباتٍ بلباس مدني أسود أو أزرق داكن أو بني. وكان ينادى عليهن بـ«آنسة». أما الأخريات ـ وهن عازبات، وأنيقات في بعض الأحيان ـ فينتمين إلى البورجوازية التجارية للمدينة وأعيانها.

من بين القواعد التي يتعين التقيد الصارم بها:

ـ الانتظامُ في الصَّفِّ أمام الفناء عند سماع الجرس الأول الذي تتكفل بقرعه إحدى التلميذات بالتناوب. الصعودُ إلى الأقسام بهدوء عند الجرس الثاني الذي يُقْرَعُ بعد خمس دقائق من الأول.

ـ يُمنع وضع الأيدي على درابزين الدرج.

ـ الوقوفُ عند دخول معلمة أو راهب أو المديرة إلى القسم، والتزامُ الوقوف إلى حين مغادرة الضيف، إلا إذا صدرت عنه إشارة بالجلوس. الإسراعُ بفتح الباب له، وإغلاقُه بعد ذهابه.

ـ عند الحديث مع المعلمات أو المرور أمامهن، يجب خفض الرأس والنظرات، والانحناء قليلًا تمامًا كما في الكنيسة أمام القربان المقدس.

ـ يُمْنَعُ على كل تلميذة خارجية ـ وخلال النهار على كل

تلميذة داخلية ـ الصعودُ إلى عنابر النوم. إنه المكان الأكثر تحريمًا بالمدرسة. لم يسبق لي أن اقتربتُ منه طيلة مدة دراستي.
ـ يُمْنَعُ الذهابُ إلى المراحيض خارج فترات الاستراحة، إلا في حالة التوفر على رخصة خاصة بناء على شهادة طبية. (في بعد ظهر اليوم الأول بعد العودة إلى الدراسة إثر عطلة عيد الفصح ٥٢، كنتُ في حاجةٍ ماسة للذهاب إلى المرحاض في بداية الحصة، ولكنني تَحَكَّمْتُ في نفسي ـ حتى كاد يغمى علي ـ إلى أن حان وقت الاستراحة، وأنا خائفة من التغوط في ملابسي).

لم يكن التعليم والدين منفصلين لا في المكان ولا في الزمان. فكل الأماكن، ما عدا ساحة الاستراحة والمراحيض، صالحة للصلاة: الكنيسةُ بطبيعة الحال، والقسمُ، حيث الصليبُ معلقٌ على الحائط فوق مكتب المعلمة، وصالةُ الطعام، والحديقةُ حيث نتلو، في شهر أيار، تراتيل السُّبْحة أمام تمثال العذراء المرفوعِ على قاعدة داخل كهف من الأغصان، في تقليدٍ لكهف لورد.

كل الأنشطة المدرسية تُفْتَتَحُ وتُخْتَتَمُ بالصلوات. نقيمها واقفات خلف المقعد، مع طأطأة الرأس، وتشابك الأصابع، مع إشارة الصليب في البداية والنهاية. وتَفْتَتِحُ الصلواتُ الأطول حصتي الصباح وما بعد الظهر. في الثامنة والنصف صباحًا: «أبانا الذي في السماوات، السلام عليك يا مريم، أؤمن بالرب

القدير، أعترف للرب، أعلن للرب الإيمان والرجاء والمحبة والندم».. وفي بعض الأحيان «تذكري يا مريم العذراء الحنون». في الواحدة والنصف ظهرًا: «أبانا» وعشر مرات «السلام عليك يا مريم». ثم صلوات قصيرة غالبًا ما يتم تعويضها بترنيمة من الترانيم عند العودة من الاستراحة وعند المغادرة صباحًا ومساء. وتكون الصلواتُ مضاعفةً لدى تلميذات الداخلية، من شروق الشمس إلى غروبها.

الصلاة هي محورُ الحياة.. دواءُ الفرد والجماعة. يجب أن نصلي لنصبح أفضل، لمقاومة الرغبات، للنجاح في تمرين الحساب، لشفاء المرضى، ولهداية الضالين. ويتواصل، كل صباح ومنذ قسم الحضانة، تفسيرُ الكتابِ ذاته.. كتابِ «التعليم المسيحي». يأتي التعليم الديني على رأس المواد في سجل النقاط. في الصباح، نهدي اليوم إلى الرب، وكل الأنشطة موجهة إليه. فالهدف من الحياة هو أن ينعم المرء بـ«الرحمة الإلهية».

صباح السبت، تمر تلميذة كبيرة على كل الأقسام لجمع «بطائق الاعتراف» (ورقة عليها الاسمُ والقِسْمُ). بعد الظهر، تنتظم سلسلة محكمة: تتسلمُ الفتاةُ، التي أدت طقس الاعتراف في الغرفة المخصصة لذلك، من يد الراهب بطاقة باسم الفتاة الأخرى التي يرغب في رؤيتها والاستماع إليها. تحمله إلى القِسم المعين وتصدح بالاسم، فتقوم الفتاة المعنية وتقصد بدورها الكنيسة.. وهكذا دواليك. ويبدو أن احترام الطقوس

الدينية، من «اعتراف» و«قداس القربان»، له الأسبقية على المعرفة: «يمكن أن نحصل على ١٠ في كل شيء ولا نكون من الصلحاء عند الرب».

عند نهاية كل فصل دراسي، يوزع رئيسُ كهنة الكنيسة، بصحبة المديرة، العلاماتِ ولوحاتِ الشرف، ويمنح للمتفوقات صورة دينية كبيرة، بينما يخصص للأخريات صورًا صغيرة الحجم. ويضع التاريخ وتوقيعه على ظهر كل واحدة منها.

هنا ينتمي الزمن المدرسي إلى زمنٍ آخر.. إلى زمنِ كراس الصلاة والإنجيل، الذي يحدد طبيعةَ الدرس الديني اليومي الذي يسبق حصة الإملاء: زمنُ المجيء، زمنُ الميلاد، ـ تقام حضانة بتماثيل صغيرة في القِسم قرب النافذة وتظل هناك إلى حين حلول عيد التطهير ـ زمنُ الصوم، المقسم هو الآخر إلى «آحاد»: الأحد السبعيني، الأحد الستيني.. إلخ، زمنُ عيد الفصح، زمنُ الصعود، وزمنُ العنصرة. من عام إلى آخر، تجعلنا المدرسة الخاصة نستعيد كل يوم الحكايةَ ذاتَها، وتُكَرِّس فينا الألفةَ مع شخصيات خفية وطاغية الحضور، فلا هي ميتة ولا هي حية: الملائكة، السيدة العذراء، الطفل يسوع.. وكلها شخصيات نعرف عن تفاصيل حياتها أكثر مما نعرف عن حياة أجدادنا.

(لا يمكن صوغ ووصف قواعد وقوانين هذا العالم سوى باستعمال الزمن الحاضر، كأنها ما زالت ثابتة تمامًا كما كانت

بالنسبة إلي في الثانية عشر من عمري. كلما تقدمتُ في استعادة هذا العالم، يبدو تماسكُه وسطوتُه مخيفين. ولكنني كنتُ، على الأرجح، أعيش فيه بطمأنينة، غير راغبة في غيره. لأن قوانينَه هذه كانت مُسْتَتِرَةً في ثنايا الروائح الناعمة للطعام والشموع، التي كانت تسبح في فضاء السلالم، وفي ضوضاء فترات الاستراحة، وفي الصمت الذي كانت تخرقه رنات درس البيانو.

وعليَّ الاعترافُ بهذا: إلى غاية المراهقة، لا شيء كان بإمكانه زعزعة اعتقادي أن الإيمان بالرب كان الوضع الطبيعي الوحيد الممكن، وأن الدين الكاثوليكي هو الحقيقة الأوحد. قد أكون قرأت «الوجود والعدم»(١)، وبدا لي مضحكًا وصف «يوحنا بولس الثاني» بـ«المخنث البولندي» في «شارلي إيبدو»(٢)، ولكن لا يسعني إلا الإقرار بأنني كنت في ٥٢ أعتقد أنني أتخبط في الخطيئة المميتة منذ أول قداس للقربان، لأنني شَقَقْتُ بطرف لساني قرص الخبز المقدس الذي التصق بِحَنَكي، قبل بلعه. كنت مقتنعة أنني دمرتُ ودَنَّسْتُ ما كان يعتبر بالنسبة إلي جسد الرب. كان الدين يشكل وجودي. هنا كان الأيمانُ وواجبُ الإيمان سواء).

---

(١) «الوجود والعدم» (L'ETRE ET LE NEANT) الكتاب الشهير للمفكر الفرنسي المعروف «جون بول سارتر» (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠).

(٢) «شارلي إيبدو» (CHARLIE HEBDO) صحيفة فرنسية ساخرة.

نحن في عالم الحقيقة والكمال، عالم النور. العالم الآخر هو ذاك الذي لا يقصد فيه الناس القداس، لا يقيمون الصلاة.. عالم الضلال الذي لا يُذْكَرُ اسمُه سوى في مناسبات نادرة وبنبرة انتقادية كأنه شتيمة: المدرسة اللائكية. («لائكي» كانت بالنسبة إلي بلا معنى محدد.. مرادفًا لـ«فاسد»). وكنا نقوم بكل شيء ليكون عالـمُنا مميزًا عن الآخر. لا نقول «كانتين» بل «صالة الطعام»، ولا «المشجب» بل «العلاقات». «زميلات» و«المعلمة» فيها رنة لائكية، وبالتالي يستحسن قول «رفيقاتي» و«آنستي»، ويجب مناداة المديرة «أختي العزيزة». ولا تخاطب أي مُدَرِّسَة التلميذاتِ بضمير المخاطب المفرد. يُخَاطَبُ الجميع، حتى الصغار ذوو الخمسة أعوام في أقسام الروض، بـ«أنتم».

كانت كثرة الأعياد والاحتفالات تميز المدرسة الخاصة عن الأخرى. وعلى مدار العام، كان الإعداد للعروض العديدة يحتل حيزًا مهمًا من الزمن المدرسي: في أعياد الميلاد، عرض كبير في الفناء لصالح التلميذات، يعاد في يومي أحد خلال كانون الثاني لصالح الآباء.. في نيسان، حفلة «السابقات» بسينما ـ مسرح المدينة، مع عروض عديدة خاصة بالآباء في الأماسي التالية.. في حزيران، حفلة «شبيبة المدارس الكاثوليكية» في «روان».

أشهر الاحتفالات هو المعرض الخيري الذي يقام في بداية تموز، والذي يسبقه استعراض في شوارع المدينة تشارك فيه كل التلميذات بلباس موحد يجسد موضوعًا ما. كانت المدرسة

الخاصة تستعرضُ ـ من خلال الفتيات ـ الزهور، والفارسات، وسيدات الزمن الماضي، وهن يتقافزن ويغنين ـ سِحرَها أمام الحشود المتراصة على الرصيف، وتؤكد سعة خيالها وتفوقها على المدرسة العمومية التي نظم تلامذتها، في الأسبوع السابق، استعراضًا ذهب إلى غاية حلبة سباق الخيل، وهم يرتدون ثوبًا رياضيًا متقشفًا. كانت الحفلات تؤكد تفوق المدرسة الخاصة.

يبيح الإعداد لهذه الحفلات كل ما يعتبر، عادة، محظورًا: الخروج إلى شوارع المدينة لاقتناء الأثواب وتوزيع الدعوات على صناديق البريد، مغادرة القِسم وسط الحصة من أجل إجراء التمارين. وبينما يُمْنَعُ القدومُ إلى المدرسة بالسروال دون ارتداء تنورة فوقه، كانت الصغيرات يظهرن على المنصة بتنانيرهن القصيرة التي تكشف أفخاذهن وملابسهن الداخلية، وكانت الكبيرات يظهرن بصدور شبه عارية، ويكشفن زغب آباطهن. وكان شكل القضيب يبدو متدليًا تحت رداء الفتيات المتنكرات في ملابس الذكور وهم يقبلون أيادي الحبيبات ويجهرون بحبهم.

في حفل أعياد الميلاد ٥١، كنت واحدة من «فتيات لا روشيل»[1]، وغنيتُ، رفقة فتاتين أو ثلاث، أمام الجمهور، بَدون حركة وأنا أحمل مركبًا. كان من المفروض أن أؤدي دور

(١) «فتيات لاروشيل» (LES FILLES DE LA ROCHELLE) أغنية فرنسية شعبية تعود حسب بعض الروايات إلى القرن السابع عشر.

واحد من «قارعي الطبول الثلاثة العائدين من الحرب»، ولكن الراهبة المشرفة على التمارين أبعدتني لأنني فشلت في استيعاب الإيقاع المطلوب في المشي. في نيسان ٥٢، خلال «حفل السابقات»، أديت دورَ حاملةِ القربان إلى فتاة عاجَلَها الموتُ، في لوحة إغريقية. كنتُ منحنيةَ الجسدِ مع ساقٍ ممدودةٍ إلى الأمام، ومفتوحة اليدين. أتذكر ذلك العذابَ، الخوفَ من السقوط على الخشبة. دَوْرَان رمزيان ثابتان، السبب بلا شك هو ذلك النقص البَيِّنُ في الأناقة الذي كنت أشكو منه، والصور شاهدة على هذا العوز.

كان كل ما من شأنه توطيد أركان هذا العالم يحظى بالتشجيع، بينما كان كل ما يهدده، محط تحقير. هكذا، من المستحسن:

ـ الذهابُ إلى الكنيسة خلال فترات الاستراحة.

ـ القيامُ بطقس القربان المقدس ابتداء من السنة السابعة بدل انتظار طقس القربان العلني، كما هو حال فتيات المدرسة التي لا رب لها.

ـ الالتحاقُ بجمعية «الصليبيات»، وهي منظمة تنهض بمهمة نشر المسيحية في العالم، وتمثل أعلى درجات الكمال الديني.

ـ التوفرُ، دائمًا، على سُبْحة في الجيب.

ـ شراءُ مجلة «Ames Vaillantes».

ـ التوفرُ على كراس الصلاة الذي أعده الراهب «دوم لُوفِيفْر».

ـ التصريحُ بأننا «نؤدي صلاة المساء جماعة في الأسرة»، والجهرُ بالرغبة في الرهبنة.

من المستهجن:

ـ إحضارُ الكتب والجرائد من غير المؤلفات الدينية و«Ames Vaillantes»، إلى القسم. القراءة تظلُّ مصدرَ ريبة بسبب «الكتب الفاسدة» التي تبدو ـ حسب المخاوف والتحذيرات التي تثيرها، وحسب ما يقال عنها في حصة فحص الضمير التي تسبق طقس الاعتراف ـ خطيرةً، وأكثر عددًا من الكتب النافعة. وتلك التي تُوَزَّع يوم الجوائز أو يُوَفِّرُها الكتبيُ الكاثوليكي بالمدينة ليست للقراءة بل للعرض والاستعراض فقط. فهي توحي بالفضيلة والتقوى من النظرة الأولى، وأتذكر منها: «الكتاب المقدس محكيًا للأطفال»، «الجنرال دولاتر دو تاسينيي»، «هيلين بوشي»[1]..

ـ مخالطة فتيات المدرسة اللائكية.

ـ الذهاب إلى السينما خارج العروض المدرسية («جان دارك»، «السيد فانسون»، «راهب أرس»). ويُعَلَّقُ على باب

---

(١) «الجنرال دولاتر دو تاسينيي» (LE GENERAL DE LATTRE DE TASSIGNY) (١٨٨٩ ـ ١٩٥٢) من أبطل الحرب العالمية الثانية بفرنسا ومن «رفاق التحرير» وقد رقي إلى مرتبة «ماريشال» بعد وفاته.
«هلين بوشي» (HELENE BOUCHER) (١٩٠٨ ـ ١٩٣٤) طيارة فرنسية معروفة حطمت العديد من الأرقام القياسية في مجال الطيران في تلك الحقبة.

الكنيسة تصنيفُ المكتب الكاثوليكي الذي يرتب الأفلامَ حسب درجة خطورتها. وأي فتاة ضُبطَت وهي خارجة من عرض «محظور» مهددةٌ بالفصل فورًا.

ـ يمنع منعًا كليًا قراءة الروايات المصورة والذهاب إلى الحفلة العمومية الراقصة المنظمة بصالة الأعمدة، بعد ظهر يوم الأحد.

ولكن لم يكن هناك أي إحساس بوجود نظام قسري. فسطوة هذا القانون كانت تغمرنا بطريقة ناعمة، مألوفة. مثلاً: ابتسامة الاستحسان من «الآنسة» التي نصادفُ على الرصيف ونُحَيي بإجلال.

في شوارع وسط المدينة، تعمل يقظة آباء التلاميذ ـ كل ما يتعلق بهيئة التلميذات وطبيعة معارفهن يصل، عاجلاً أو آجلاً، إلى المدرسة ـ على صون الطابع المتميز للمدرسة الخاصة ووظيفتها الانتقائية. فقول «ابنتي تدرس في المدرسة الداخلية» ـ وليس فقط «المدرسة» ـ يَجْعَلُ المرءَ يحسُّ بالفرقِ الشاسع بين الاختلاط بمن هب ودب، والانتماء إلى وسط فريد، مميز.. بين الخضوع فقط للتعليم الإلزامي، والاختيار المبكر لطموح اجتماعي معين.

بطبيعة الحال، هناك اتفاق ضمني على أنه ليس في المدرسة الداخلية لا أغنياء ولا فقراء، بل فقط عائلة كاثوليكية كبيرة.

(ارتبطتْ كلمةُ «خاص» إلى الأبد بالنقص، والخوف، والانغلاق.. حتى في عبارة «الحياة الخاصة». الكتابة فعلٌ عموميٌ).

في عالم التَّمَيُّزِ هذا، حُزْتُ الاعترافَ بي «تلميذةً نجيبةً»، وكنتُ استمتعُ بالحرية والامتيازات التي يخولها احتلال الرتبة الأولى في الترتيب المدرسي. الإجابةُ قبل الأخريات، اختياري لشرح الحلول، للقراءة لأنني أمنحُ النبرةَ الصحيحة للنص.. كل هذا كان يمنحني نوعًا من «الرفاه» في الفصل. لم أكن منضبطةً ولا مجتهدةً كثيرًا، وكنتُ أنجزُ التمارين بلا مبالاة وأستعجلُ الانتهاءَ منها. كنت صاخبةً وثرثارةً، أجد متعةً في لعب دور التلميذة المشاغبة الطائشة دون أن أكون كذلك فعلاً، مع الحرص على تجنب إبعادي من طرف الأخريات بسبب علاماتي الجيدة.

في موسم ٥١-٥٢، كنتُ في السنة النهائية من المرحلة الابتدائية ـ أي مستوى المتوسط الثاني في المدارس الابتدائية العمومية ـ عند الآنسة «ل»، التي كانت معروفة لدينا بصرامتها الشديدة حتى قبل أن تصبح معلمتنا. لما كنتُ في المستوى السابق، كنا نسمعها باستمرار، عبر الحاجز، وهي تصرخ وتضرب القمطر بمسطرتها. عند المغادرة زوالاً ومساء، كانت تتكلف ـ بسبب صوتها القوي دون شك ـ بمهمة المناداة على أسماء تلاميذ قسم الحضانة الجالسين في مقاعد الفناء، ليلتحقوا

بآبائهم المنتظرين بالخارج. كانت قصيرةً ـ في بداية السنة الدراسية كنتُ قد أصبحتُ أطول منها ـ نحيفةً، منفعلةً، بعمر يصعب تحديده. شعرٌ رماديٌ بتسريحة الشنيون (الكعكة)، وجهٌ دائري، ونظاراتٌ سميكة تضخم من حجم عينيها. إسوة بكل الراهبات ذوات اللباس المدني، كانت تضع فوق وزرتها، في الشتاء، عباءة قصيرة مخططة بالأزرق والأسود. كانت ترغمنا، خلال الدروس التي لا نحتاج فيها إلى الكتابة، على شبك أيدينا خلف ظهورنا، مع استقامة الرأس والنظرات. كانت لا تكف عن تهددينا بإنزالنا إلى المستوى الدراسي الأدنى. وتحتجزنا حتى بعد نهاية الحصة ما لم نجد الحل للتمرين. وَحْدَها قِصصُ الرب والشهداء والقديسين كانت تجعلُها تَلِين حد البكاء. أما باقي الدروس، من إملاء وتاريخ وحساب، فكانت تعطيها بدون حب، ولكن بصرامة وفظاظة. ويجب تجشم ألم حفظها على أمل النجاح في امتحان الأبرشية الذي تشرف عليه الأسقفية، وهو المعادل لامتحان الشهادة الابتدائية التي تخول المرور إلى السنة أولى إعدادي. كان الآباء والأمهات يهابونها ويُثنون على صرامتها التي تشمل الجميع بعدل وإنصاف. كانت التلميذات يشعرن بالفخر وهنا يعلنَّ أنهن في قسم المعلمة الأكثر صرامة في المؤسسة، كأنهن يفتخرن بمناصرة شهيد بلا هوادة.

هذا لم يكن يمنعنا من توظيف كل أساليب المراوغة للإفلات من رقابتها، مثل الوشوشة خلف ظهر اليد، أو من تحت الطاولة، أو كتابة كلمة على الممحاة قبل تمريرها إلى

تلميذة أخرى.. إلخ. وبين الفينة والأخرى كان القِسم يرد على صراخها ومتطلباتها بموجة من التكاسل، تبدأ من الأكثر تلكؤًا في مسايرتها قبل أن تشمل الأكثر حرصًا على إرضائها. تشرع، إذاك، في البكاء وهي جالسة بمكتبها رافضة مواصلة الدرس، حينها نصبح مجبرات على طلب الصفح منها، واحدة تلو الأخرى.

لم يكن سؤال «هل أحب الآنسة 'ل' أم لا» مطروحًا بالنسبة إلي. لم أكن أعرف أي شخص أكثر علمًا منها في محيطي. لم تكن امرأةً مثل زبونات والدتي أو خالاتي، بل التجسيدَ الحي لقانون يضمن لي، عند كل درس حفظته وكل تمرين خال من الأخطاء، تفوق كياني المدرسي. هي التي كنت أقارن نفسي بها وليس التلميذات الأخريات، وهدفي: معرفة كل ما تعرف عند نهاية السنة الدراسية (هذا الأمر كان ولزمن طويل مرتبط بالاعتقاد أن كل مدرس لم يكن يعرف أكثر مما كان يُعَلِّمُنا. ومن هنا ينبع ذلك التقدير الكبير والرهبة اللذان كان يوحي بهما عمومًا أساتذة «الأقسام الكبرى»، وذلك التعالي اتجاه المدرسين الذين مررنا عندهم سابقًا، فقد أصبحوا مُتَجاوَزين).

لما كانت تمنعني من الجواب لإعطاء الوقت الكافي للأخريات من أجل الوصول إلى الحل الصحيح، أو لما كانت تبسط أمامي تحليلاً منطقيًا، فإنها تضعني بجانبها. وكنتُ أعتبر

إصرارَها على تعقب عيوبي الدراسية وسيلتَها لرفعي إلى مستوى الإتقان الذي بَلَغَتْهُ.

في أحد الأيام، لامتني على الشكل الذي أخط به حرف «m» الذي كنت أَلْوِي ساقَه الأولى إلى الداخل على شكل خرطوم فيل، وقالت ساخرة «هذا فيه تلميحات داعرة». احْمَرَّ وجهي ولم أقل شيئًا. كنتُ أدرك ماذا تعني، وهي كانت تدرك أنني أعلم: «إنكِ ترسمين m مثل قضيب الرجل».

في الصيف، بعثْتُ لَهَا بطاقةً بريديةً من «لورد».

(وأنا أبسط ملامح العالم المدرسي لتلك السنة، انْحَسَرَ عني ذلك الشعور بالغرابة الذي اعتراني أمام صورتي وأنا بلباس طقس القربان المقدس. قَسَمَاتُ الوجه الجدية، النظراتُ المستقيمةُ، الابتسامةُ الخافتة التي كانت بلا شك إشارة إلى حزن أقل، أكثر منها إلى الاستعلاء.. كل هذه الملامح فقدتْ ذلك الغموضَ الذي كان يلفُّها. فـ«النص» يضيء عتماتِ الصورة التي تُعْتَبَرُ تجسيدًا له. وأرى الآن التلميذةَ الصغيرةَ النجيبةَ بالمدرسة الداخلية، المسلحةَ بسلطةٍ ويقينياتٍ في عالمٍ يجسد لها الحقيقةَ والتقدمَ والإتقانَ، ولا تتصورُ أن تكون غير جديرة به).

(أفلحتُ في «استعادة» القِسم من جديد، انطلاقا من المقعد الذي كنتُ أَحْتَلُّه منذ نهاية كانون الأول تقريبًا: في الصف الأول إلى اليسار ـ بالنسبة إلى قمطر الآنسة «ل» ـ كنتُ وحيدةً في

طاولة تسع تلميذتين ملتصقة بأخرى شبيهة تجلس عليها «بريجيت د» ذات الجبهة البارزة تحت كتلة من الشعر الأسود المتموج.

من زاوية منحرفة، أرى القسم خلفي: هناك حيزٌ مضاءُ حيث تتحرك أجسادٌ بوزرات مختلفة يصعب تحديدها، ووجوه يمكنني ذكرُ تفاصيل عديدة منها.. نوع التسريحة، وشكل الشفاه (متشققة عند فرانسواز. ه.. رخوة عند رولاند.ر)، ولون البشرة (نمش عند دونيز.ر)، ولكن أعجز عن تحديد كل الملامح مجتمعة. أسمع أصواتَهن، بعضَ العبارات غير اللائقة التي رسختهن في ذهني: «هل تتحدثين اللغة الجاوية؟[1]» تسأل سيمون. د.

وهناك حيز آخر معتم حيث يستحيل عليَّ تحديد الملامح لأن الأسماء تاهت عن البال).

كان لديّ تصنيف آخر غير ذلك القائم على كشف النقاط.. التصنيفُ الذي يتولَّد مع الأيام من خلال العيش وسط المجموعة، وتترجمُه عبارات «أحب» أو «لا أحب» هذه الفتاة أو تلك. أولاً، هناك التمييز بين «المغرورات» و«غير المغرورات».. بين «اللواتي يظنن أنفسهن..» ـ فقط لأن الاختيار يقِع عليهن للرقص في الحفلات، ويذهبن للاصطياف في البحر ـ والأخريات. الغرور هنا سمةٌ ماديةٌ واجتماعيةٌ، يرتبطُ

(١) نسبة إلى «جافا»، الجزيرة الإندونيسية المعروفة.

بالفتيات الأصغر سنًا، والأكثر جمالاً اللواتي يقطن بمركز المدينة، وآباؤهن تجار أو ممثلون لشركات. في فئة «غير المغرورات» نجد بنات المزارعين، اللواتي يعشن في الداخلية أو يتَّبعن نظام نصف داخلي، ويأتين إلى المدرسة على متن الدراجات الهوائية من الريف القريب. هن أكبر سنًا، وفي الغالب راسبات. وكل ما يمكنهن التباهي به ـ الأراضي، الجرارات، العمال ـ ليس له أي وزن مثل كل أشياء الريف. فكل ما يبدو «ريفيًا» يكون نصيبه الاحتقار. إنه شتيمة: «هل تظنين نفسك في ضيعة!».

هناك تضنيف آخر، ملح، يرتب، من تشرين أول إلى حزيران، وبشكل جلي الأجساد التي كانت تُعتبرُ، إلى ذلك الحين، طفوليةً بلا مميزات. هناك الصغيرات، ذوات الأفخاذ الرفيعة في التنانير القصيرة، والشعر المضموم بالمشابك والأشرطة، وهناك «الطويلات» اللواتي يجلسن في المقاعد الخلفية للقسم، الأكبر سنًا في الغالب. كنتُ أراقب خلسة تحولات أجسادهن وتغير ملابسهن.. انتفاخ الكورساج.. الجوارب الطويلة للخروج يوم الأحد. كنت أحاول تخمين وجود فوطات صحية تحت الفستان.. أسعى إلى رفقة هؤلاء الفتيات لأتعلم الأمور المتعلقة بالجنس. في عالم حيث لا يُسمح للآباء ولا المعلمات حتى الاقتراب مما يُعتبرُ خطيئة مميتة.. حيث ينبغي أن نَتَرَصَّدَ باستمرار أحاديث الكبار لاقتناص

أي فتات عن هذا السر، لا محيد عن الفتيات الأكبر سنًا لـ«تهريبنا» إلى ذلك العالم السري. أجسادُهن نفسُها مصدرٌ صامتٌ للمعرفة. وكانت تقول لي: «لو كنتِ تلميذةً داخلية لكشفنا لكِ في عنبر النوم عن الفوطة الصحية وهي ملطخة بالدم!».

هيئةُ الفتاة الشابة التي توحي بها صورة بياريتز خادعةٌ. صحيح أنني كنتُ، في قسم الآنسة «ل»، بين الطويلات، ولكن صدري كان مسطحًا بدون أي نتوء. في تلك السنة كنتُ متلهفةً للعادة الشهرية. وأمام أي فتاة ألتقيها لأول مرة، كنتُ أتساءل إن كانتْ تأتيها. أشعر بالنقص لأنها لم تَأْتِني بعدُ. في السنة الأخيرة من الابتدائي، كانت الفوارقُ الجسديةُ هي التي تثير انتباهي أكثر من غيرها.

كنتُ أريدُ أن أكبر. ولولا المنع المفروض من طرف والدتي وإدانة المدرسة الخاصة، لكنتُ ارتديتُ، للذهاب إلى القداس، الجواربَ الطويلةَ والكعبَ العالي، ولَكنتُ وَضَعْتُ أحمر الشفاه وأنا في الحادية عشر. لم يكن من حقي سوى تجعيد الشعر حتى أبدوَ فتاةً شابةً. في ربيع ٥٢، أهدتني أمي لأول مرة فستانَيْنِ بِطَيَّاتٍ وضيقين عند الخصر، وحذاءً ذا كعب عريض وعالٍ ببضع سنتميترات. ورَفَضْتُ أن أَضَعَ الحزامَ الأسودَ الواسعَ المطاطيَّ، والذي كان يبرز خُصُورَ ومؤخراتِ كل الفتيات

والنساء في ذلك الصيف. تَغْمُرُنِي ذكرى تلك الرغبة الملحة في ارتداء ذلك الحزام الذي افتقدتُه طيلة الصيف.

(لما أقوم بجرد سريع لعام ٥٢، أتذكر - إلى جانب الصور - أُغنيتَيْ «جنوني الصغير» و«مكسيكو»، الحزامَ الأسودَ المطاطيَّ، فستانَ والدتي الأزرقَ المزينَ بالزهور الحمراء والصفراء، محفظةَ لوازم الأظافر من البلاستيك الأسود.. كأن الزمن لا يقاس سوى بالأشياء. فالملابسُ والإعلاناتُ والأغاني والأفلامُ التي تظهر وتختفي في عام واحد، بل في موسم واحد معين، تُضْفِي بعضًا من اليقين على كرونولوجيا الرغبات والمشاعر. فالحزامُ المطاطيُّ الأسودُ يؤرخ بشكل مؤكد لصحوة الرغبة في إثارة الرجال التي لا أرى لها أثرًا قبل ذلك.. أما أغنية «رحلة إلى كوبا» فتؤرخ للحلم بالحب والبلدان القصية.

كتب بروست[1] ما معناه أن ذاكرتنا توجد خارجنا.. في نسمة ممطرة، في هبة خريفية.. إلخ. هي أشياء من الطبيعة تؤكد، بتكرارها، على دوام الكائن. بالنسبة إلي - وإلى كل الذين ينتمون إلى عصري على الأرجح - أنا التي ارتبطتْ ذكرياتي بأغنية صيفية، بحزام كان موضة، بأشياء منذورة للاندثار، فإن

---

(١) «مارسيل بروست» (MARCEL PROUST) (١٨٧١ - ١٩٢٢) الكاتب الفرنسي الشهير صاحب «البحث عن الزمن المفقود» وهي رواية ضخمة من سبعة أجزاء، وتعتبر من كلاسيكيات الأدب.

الذاكرةَ لا تأتي بأي برهان على دوامي أو على هويتي. بل تحسسني بتشظي كياني وبطابعه التاريخاني، وتؤكدهما لي.

هناك في الطابق الذي يعلو قِسمَنا، مثل عالم بعيد المنال، توجد «الكبيراتُ» حقًا، وهو الاسم الذي اختارتْه المؤسسةُ لوصف التلميذات من الأولى إعدادي إلى الباكالوريا. كانت كبيراتُ الكبيرات يُغَيِّرْن قاعات الدرس من حصة إلى أخرى، وكنا نُتَابِعُهن عند عبورهن للممرات بفوطات ملطخة. كانت قاعاتُهن صامتة. لم يكنَّ يَلْعَبْن. كنَّ يَتَنَاقَشْن في مجموعات صغيرة، وهن متكئات على حائط الكنيسة أو تحت أشجار الزيزفون. أعتقد أننا كنا نتابعهن باستمرار، ولم يكنَّ يلتفتنَ إلينا أبدًا. كنَّ تلك الصورة التي تجذبُنا إلى الأعلى في المدرسة والحياة. بسبب أجسادهن كفتيات شابات، وبسبب معارفهن بالخصوص ـ التي تتيح مناسبة إعلان الجوائز، وتخص كل المواد من الجبر إلى اللاتينية، فرصةً للوقوف على اتساعها وغموضها ـ كنتُ مقتنعةً أنه لا يسعهن إلا النظر إلينا بازدراء. كان الدخول إلى قسم الرابعة إعدادي لتسليم بطاقة الاعتراف يَغْمُرُني بالذعر. كنتُ أُحِس بكل الأنظار منصبة على كياني التافه كِتلميذة في السنة الأخيرة ابتدائي تجرؤ على إزعاج السير المهيب للمعرفة. فور المغادرة، يعتريني الاستغراب لأنني لم أُسْتَقْبَل بِوَابِلٍ صاخبٍ من القهقهات والصفير. ولم يكن يدور بخَلدي أن بعض «الكبيرات» يجدن صعوبة في مسايرة الدروس،

ويرسبن، بل ويكررن السنة الأخيرة من الإعدادي ثلاث مرات. وفَرَضًا علمتُ، ما كان ذلك ليزعزع يقيني في تفوقهن: فحتى الراسبات منهن أكثر علمًا مني.

في تلك السنة، كنتُ أحاول تتبعَ تلميذةٍ من الكبيرات، باحثةً عنها بنظراتي وسط الصفوف، قبيل العودة إلى الأقسام بعد الزوال. كانت قصيرةً، ونحيفة. شعرُها أسود مجعد، بين الطويل والقصير، يغطي جبهتها وأذنيها. وجه ممتلئ، حليبي ووديع. لعلني انتبهتُ إليها لأنها كانت ترتدي نفس الحذاء الجلدي الأحمر الطويل الرقبة ذي السلسلة الذي أنتعل، في الوقت الذي كانت فيه أحذيةُ الثلج السوداءُ المصنوعةُ من المطاط هي الموضة السائدة. لم يخطر ببالي قط احتمال أن تَنْتَبِهَ إلي وتُحَدِّثُني. كنتُ أجد متعة في النظرِ إليها، إلى شعرها، إلى ساقيها الممتلئتين العاريتين.. في التقاطِ كلامها. الشيءُ الوحيدُ الذي كنتُ أسعى إليه هو معرفة اسمها العائلي والشخصي، والشارع حيث تَقْطُنُ: «فرانسواز رينو» أو «رينولت»، «طريق لوهافر».

على ما يبدو، لم أعقد صداقة مع أي تلميذة بالمدرسة الخاصة. لم أكن أزور أي واحدة، ولم تكن تزورني أيٌّ مِنْهُن. لم نكن نختلط خارج المدرسة، اللهم إلا عند سلك طريق مشترك. لم تكن بيننا سوى «صَدَاقَات الطريق». كنتُ أقطع جزء

من هذا الطريق رفقة مونيك. ب، وهي ابنة مزارع بالضواحي، كانتْ تَتْرُكُ دَرَّاجتَها صباحًا عند عمة عجوز ـ تتناول معها وجبة الغذاء ـ وتستعيدها مساء. كانتْ، مثلي، طويلةً وغيرَ ممتلئة، بوجنتين كبيرتين وشفتين بارزتين أيضًا، غالبًا ما تكون على طرفيهما آثار الطعام. كانتْ تعيش في قلق دائم خوفًا من الحصول على نتائج متواضعة. عندما كنتُ أمر في الواحدة زوال على بيت عمتها لمرافقتها، كنا نتحدث، أولا وقبل أي شيء، عما تناولناه للتو.

وبما أنني كنتُ الوحيدةَ ـ في الأسرة والجوار ـ التي تذهبُ إلى المدرسة الخاصة، فلم يكن لدي، خارج القسم، أي «تواطؤ مدرسي» مع أي كان في محيطي القريب.

(أتذكر لعبةً كنتُ أمارسها في صبيحات أيام العطلة، التي أظل خلالها في السرير إلى غاية الظهر. على الظَّهْرِ الخالي لبطاقات بريدية قديمة أعطتني عجوزٌ حزمةً كبيرةً منها، كنتُ أكبتُ اسم ولقب فتاة. لا عنوان، فقط اسم المدينة التي تمثلها البطاقة البريدية. لا نص في الحيز المخصص لذلك. الأسماء والألقاب كانت تزودني بها مجلات «LISETTE»، «LE PETIT ECHO DE LA MODE»، و«LES VEILLEES DES CHAUMIERES»، وكنتُ أفرض على نفسي توظيفها وفقًا للترتيب التي تظهر به في تلك المجلات. كنتُ أمحو أسماءً وأعوضها بأخرى لمواصلة اللعب. متعة لا نهاية لها (نوع من

المتعة الجنسية) في خلق العشرات من المُرْسل إليهن. في بعض الأحيان، نادرة جدًا، أرسل بطاقة إلى نفسي. فارغة هي الأخرى).

يقولون عني: إن المدرسةَ كلُّ شيء في حياتها.

كانت أمي تمثل امتدادًا لشريعة الدين وتعليمات المدرسة. كانت تحضر القداس عدة مرات في الأسبوع، وتؤدي صلوات الغروب في الشتاء، وصلاة الخلاص، وتحضر عظة يوم الصوم، ومسيرةَ درب الصليب يوم الجمعة العظيمة. منذ شبابها، كانتْ المسيراتُ والاحتفالاتُ الدينيةُ تعتبر بالنسبة إليها مناسباتٍ فاضلةً للخروج والظهور بهندام أنيق وسط رفقة رفيعة. وكانت ترافقني إلى هذه المناسبات في سن مبكرة جدًا (أتذكر مسيرة طويلة لإحضار تمثال القديسة «نوتر دام دو بولون»[(١)] من طريق لوهافر)، وكانت تصور لي متعة مسيرة أو زيارة إلى كنيسة «نوتر دام دو بون سكور»[(٢)] على أنها مثل متعة الخروج في نزهة إلى الغابة. حين يغيب الزبائن، بعد الظهر، كانت تجثو عند سريرها، أمام الصليب المعلق فوقه. في الغرفة التي أتقاسم

---

(١) تمثال «نوتر دام دو بولون» (NOTRE DAME DE BOULOGNE)، وهو تمثال لمريم العذراء كما ظهرت في العصور الوسطى بشمال فرنسا حسب السردية الكاثوليكية.

(٢) «نوتر دام دو بون سكور» (NOTRE DAME DE BON SECOURS): كنيسة كاثوليكية قديمة توجد في بلدة «بون سكور» بضواحي مدينة «روان».

مع والديَّ كانت صورة كبيرة للقديسة «تيريز دو ليزيو»[1]، ونسخة من «وجه يسوع المقدس»، ونقش لكنيسة «القلب الأقدس»، كلها مؤطرة ومعلقة. وعلى المدخنة تمثالان للسيدة العذراء، واحد من المرمر، والآخر بصباغة برتقالية خاصة تجعله مضيئًا في الليل. في المساء، كنا، أنا وأمي، نتلو بالتناوب نفس صلوات الصباح بالمدرسة. ولم نكن نأكل أبدًا اللحوم، أو شرائح لحم البقر، أو اللحوم الباردة يوم الجمعة. وكان الحج إلى «ليزيو» بالحافلة، الذي يدوم يومًا واحدًا ـ يقام القداس والقربان بدير الكرمليين، ثم زيارة الكنيسة ودار البْوِيسُونِي، حيث ولدت القديسة ـ هو الرحلة الكبرى والوحيدة لنا معًا في الصيف.

كانت أمي قد ذهبت لوحدها إلى «لورد» في إطار الحج المنظم من طرف الأبرشية غداة نهاية الحرب، لتقديم الشكر للعذراء على حمايتنا إبان القصف الجوي.

بالنسبة إلى أمي، الدينُ جزءٌ من كل شيء رفيع: المعرفة، الثقافة، والتربية الحسنة. والرفعة تبدأ، في ظل غياب التعليم، من حضور القداس، والإصغاء إلى العظة. هذا هو السبيل إلى انفتاح العقل. وبالتالي كانت تحيدُ قليلاً عن تعاليم المدرسة الخاصة ومراميها، وتخرق مثلاً المحرمات في مجال القراءة

(١) القديسة «تيريز دو ليزيو» (SAINTE THERESE DE LISIEUX) (١٨٧٣ ـ ١٨٩٧) راهبة كرملية فرنسية.

(كانت تشتري وتقرأ قدرًا كبيرًا من الروايات والصحف، وتُمَرِّرُها لي)، وترفض تعاليمها بالتضحية والخضوع لأنهما مضران بمسيرة النجاح. كانت تخشى أنْ يتم تجنيدي من طرف المنظمات الشبابية ومنظمة «الصليبيات».. أنْ يتطاول الإفراطُ في التعليم الديني على حيز الحساب والإملاء. فالدين يجب أن يظل داعما للتعليم وليس أن يحل محله. لن يروق لها أن أصير راهبة، في ذلك تدميرٌ لآمالها.

لم يكن يهمها هداية العالم، أو بدا لها ذلك غير لائق بتاجرة: تكتفي فقط بإبداء ملاحظة باسمة لفتيات الحي اللواتي لا يحضرن القداس. ويَتَحَدَّدُ دين أمي ـ الذي تَشَكَّلَ بفعل تأثير ماضيها كعاملة في مصنع، وتَكَيَّفَ مع شَخصيَّتها العنيفة والطموحة، ومع مهنتها ـ في كونه:

ـ ممارسة فردانية.. وسيلة لجعل كل الحظوظ بجانبها لضمانِ تأمينٍ على حياتها الدنيوية.

ـ علامة على تميزها عن باقي أفراد العائلة وعن أغلب الزبائن بالحي.

ـ إعلانا اجتماعيا.. تُثْبِتُ لبورجوازيات وسط المدينة المتغطرسات أن عاملةً سابقة أفضل منهن بورعها وسخائها مع الكنيسة.

ـ إطارا لرغبة عامة في بلوغ الإتقان وتحقيق الذات، ومستقبلي جزءٌ منها.

(يبدو لي استنفادُ كل معاني الدين وأدواره في حياة والدتي أمرًا مستحيلا. بالنسبة إلي، في ٥٢، كانت أمي هي الدين. كانت تصحح شريعةَ المدرسةِ الخاصة بشكل يجعلها أكثر تَطَلُّبًا. ومن وصاياها الأكثر تواترًا: أخذُ العبرة (من كياسةِ أولطفِ أوانضباطِ هذه أو تلك)، ولكن لا ينبغي استنساخ (عيوب الأخريات).. وخصوصًا، كوني قدوة (في الكياسة، والعمل، وحُسن الهندام.. إلخ).. و«ماذا سيقولون عنك؟»).

لم تكن الجرائد والروايات التي كانتْ تَمُدُّنِي بها ـ فضلاً عن المكتبة الخضراء ـ تتعارض مع تعاليم المدرسة الخاصة. فكلها كانت تنصاع لذلك الشرط الذي لا قراءة في غيابه: أن تكون صالحة لوضعها بين كل الأيادي.. إذن مجلات «Les Veillées des chaumières»، و«Le Petit Echo de la mode»، وروايات «ديلي» و«ماكس دو فوزي»[1]. على أغلفة بعض الكتب تظهر علامة «مؤلف معتمد من طرف الأكاديمية الفرنسية» التي تؤكد على انسجامها مع الضوابط الأخلاقية بقدر ما تشهد على قيمتها الأدبية، إلم يكن أكثر. في عامي الثاني عشر، كنتُ أتوفر على

---

(١) «ماكس دو فوزي» (MAX DU VEUZIT) الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية «ألفونسين زيفيرين فافاسور» (ALPHONSINE ZEPHIRINE VAVASSEUR) (١٨٧٦ ـ ١٩٥٢)، وقد اشتهرت برواياتها العاطفية التي كانت تحقق مبيعات كبيرة.

الأجزاء الأولى من سلسلة «بريجيت» لـ«بيرث بيرناج»[1]، والتي كانت تضم آنذاك ١٥ جزءً. وتحكي، في شكل يوميات، حياة بريجيت، مخطوبةً، فزوجةً، ثم أمًّا وجدة. مع نهاية المراهقة كنتُ حصلت على الأجزاء كاملةً. كَتَبَتِ المؤلفةُ في تصدير الجزء الذي يحمل عنوان «بريجيت فتاةًشابة»:

«تتخبط برجيت وتخطئ، ولكنها تعود دائمًا إلى الصراط المستقيم(...) لأن التاريخ يؤكد بحزم أنه على حق. فالروح النقية السلالة، الروح المهذبة والمحصنة بالقدوة الحسنة، والتعاليم المفعمة بالحكمة، والأصل الطيب، والمنهاج المسيحي.. هذه الروح يمكن أن يستهويها «تقليد الآخرين» والتضحية بالواجب في سبيل الملذات.. هذه الروح ستفضل في نهاية المطاف الواجب مهما كان الثمن(...) إن المرأةَ الفرنسيةَ الحقيَقة هي دائمًا وأبدًا المرأةُ التي تحب بيتَها، وبلدَها. والتي تحافظ على صلواتها».

تُجَسِّدُ بريجيت نموذجَ الشابة الحقيقية، المتواضعة، الزاهدة في الماديات، في زمن يملك فيه الناس صالونًا، وبيانو،

(١) «بيرث بيرناج» (BERTHE BERNAGE) (١٨٨٦ ـ ١٩٧٢) كاتبة فرنسية اشتهرت بسلسلة رواياتها التي تحمل عنوان «بريجيبت»، وهي سلسلة تتتبع مسار حياة الشخصية الرئيسية، «بريجيت هوتفيل» منذ عامها الثامن عشر إلى أن صارت عجوزًا.

ويلعبون التنس، ويرتادون المعارض، ويحضرون حفلات الشاي، ويقصدون منتزه «بولون»[١].. في عالم لا يتخاصم فيه الوالدان أبدًا. ويعلمنا هذا الكتاب ـ بالتوازي مع سمو القواعد الأخلاقية المسيحية ـ تفوق أسلوب الحياة البورجوازية.

(كانت تبدو لي مثل هذه القصص أكثر واقعية من كتب «ديكنز»[٢] لأنها كانت ترسم مسارًا واردًا جدًا: حب ـ زواج ـ أطفال. فهل «الواقع»، إذن، هو «الممكن»؟

في نفس الفترة التي كنتُ أقرأ فيها «بريجيت فتاةً شابةً» و«عبد أوملكة» لـ«ديلي»، شاهدت فيلم «يا له من ذكاء» مع «بورفيل»، وصدر في المكتبات «القديس جيني» لـ«سارتر»، و«ترتيلة الأبرياء» لـ«كَلاَفِيرْت»[٣]، وفي المسرح ظهرت «الكراسي» لـ«يونسكو». ظلت هاتان السلستان من الكتابات منفصلتين إلى الأبد بالنسبة إلي).

كان والدي يكتفي بقراءة اليومية الجهوية فقط، ولم يكن

---

(١) منتزه «بولون» (BOIS DE BOULOGNE)، منطقة خضراء شهيرة في غرب باريس يقصدها الباريسيون للرياضة والتنزه.

(٢) «شارلز ديكنز» (CHARLES DICKENS) (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) من أشهر كتاب الإنجليز في القرن التاسع عشر.

(٣) «لويس كلافيرت» (LOUIS CALAFERTE) (١٩٢٨ ـ ١٩٩٤) كاتب فرنسي من أشهر رواياته «ترتيلة الأبرياء» (REQUIEM DES INNONCENTS) التي تحكي عن الحياة المزرية لمراهق في ضاحية مدينة «ليون»، حيث العنف والجنس، والفقر...

للدين حيزٌ في كلامه، باستثناء بعض الملاحظات الحانقة اتجاه أمي: «أنت مُعَلَّقَةٌ دائمًا بالكنيسة»، «ماذا عساك تحكين للراهب!».. أو على شكل تعابير ساخرة من عزوبية الرهبان التي لا تَرُدُّ عليها أبدًا، كأنها مجرد توافه لا تستحق الالتفات إليها. كان يشارك في نصف قداس في أحد ما، وهو واقف هناك في عمق الكنيسة حتى يتسنى له الخروج سريعًا، ثم يتأخر إلى الأحد الموالي لعيد الفصح ـ آخر موعد قبل السقوط في الخطيئة المُمِيتة ـ للقيام بشعائر الفصح (الاعتراف والقربان المقدس)، كأنه ينفذ مهمة ثقيلة. والحق أن أمي لم تكنْ تشدد سوى على هذا الحد الأدنى الذي من شأنه أن يضمن له الخلاص. في المساء، لا يشارك معنا في الصلاة، متظاهرا بالنوم.

بما أنه لم يكن يُبْدِ أي علامة على تعلقه بالدين، وبالتالي على الرغبة في الارتقاء، فإن أبي لم يكن يتمتع بأي سلطة.

ولكن، كانت المدرسةُ الخاصةُ مرجعَه الأعلى، تمامًا مثل أمي: «ماذا سيقولون عنكِ في الداخلية، إن علموا بسلوكِك، بطريقة كلامكِ... إلخ».

ثم: «لا ينبغي أن يأخذوا عنكِ نظرة سيئة في المدرسة».

أمَطْتُ اللثام عن القوانين والقواعد التي كانت تحكم هذين «الوسطين» حيث كنت حبيسة. وقمت بجرد اللغات التي كانت تخترقني وتُشَكِّلُ تصوري لنفسي وللعالم من حولي. لم يكن فيها أبدًا أي مكان لمشهد ذلك الأحد من حزيران.

لم يكن ممكنًا البوح بالأمر لأي كان، في العالمين حيث كنتُ أعيش.

لم نعد ننتمي إلى فئة الناس المحترمين، الذين لا يشربون، لا يتعاركون، ويحرصون على حسن الهندام عند الذهاب إلى المدينة. قد أحصل على وزرة جديدة عند كل دخول مدرسي، وكراس صلوات جميل، ويمكن أن أكون الأولى في كل شيء، وأتلو صلواتي عن ظهر قلب، إلا أنني لم أعد مثل الفتيات الأخريات بالقسم. لقد رأيتُ ما لا يجب أن أرى.. لقد اطلعتُ على ما لا يجب - في ظل تلك البراءة الاجتماعية للمدرسة الخاصة - أن أعرف، وما يضعني، بكيفية تفوق كل وصف، في معسكر الذين يُغذي العنفُ والإدمانُ والخللُ العقليُّ المنتشرُ بينهم، تلك الحكاياتِ التي تنتهي بـ: «مؤسفٌ حقًا رؤية هذا».

لم أعد جديرةً بالمدرسة الخاصة، بِسُمُوِّها، وبدرجة إتقانها. لقد دخلتُ حقلَ العار.

وأسوأ ما في العار أننا نعتقد أنفسنَا الوحيدين الذين يشعرون به.

تقدمت لامتحان الأبرشية وأنا أتخبط في الذهول، ولم أحصل سوى على ميزة «حسن»، أمام اندهاش واستياء الآنسة «ل». كان ذلك في الأربعاء الموالي، ١٨ حزيران.

في الأحد التالي، ٢٢ حزيران، شاركت، مثل العام السابق، في احتفال شباب المدارس المسيحية بمدينة «روان». وعادت الحافلة بالتلميذات في وقت متأخر من الليل. كانت الآنسة «ل» هي التي تكفلت بمرافقة الفتيات إلى المنطقة التي تضم حَيَّنا. كانتِ الساعةُ تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. طرقتُ باب البقالة. بعد وقت ليس بالقصير، أضاءت مصابيح المحل، وظهرتْ أمي في ضوء الباب، شعثاء، خرساء بالنعاس، ترتدي قميصَ نوم مجعدًا وملطخًا (كنا نمسح مناطقنا الحساسة بقميص نومنا بعد التبول). تَوَقَّفَتِ الآنسةُ «ل» والتلميذاتُ (اثنتان أو ثلاث) عن الكلام. غمغمتْ أمي «مساء الخير». لم يجبها أحد. سارعتُ إلى داخل البقالة حتى أضع حدًا لهذا المشهد. شاهدتُ لأول مرة أمي بعين المدرسة الخاصة. في ذاكرتي، يشكل هذا

المشهد امتدادًا للآخر الذي أراد فيه والدي قتل والدتي، رغم أن لا علاقة البتة بين المشهدين. كأن طبيعتنا الحقيقية وأسلوب حياتنا قد انكشف من خلال عرض جسدِ أمي بدون مِشَدٍّ، وقميصِها المريب هذا.

(طبعًا، لم يخطر ببالي أنه لو كانت أمي تَمْلِكُ معطفَ نوم وارتدته فوق قميصها، لما غَمَرَتِ الدهشةُ فتياتِ المدرسة الخاصة ولا المعلمةَ. ولكن معطف النوم هذا كان يعتبر في الوسط الذي أنتمي إليه من كماليات الترف، وسيبدو شاذًا، بل مثيرًا للسخرية بالنسبة إلى النساء اللواتي عليهن ارتداء ملابسهن فور الاستيقاظ للشروع في العمل. في نمط التفكير الذي كنتُ أعيشُ في كنفه آنذاك، والذي لم يكن فيه لمعطف النوم أي حضور، كان الإفلاتُ من العار أمرًا مستحيلاً).

بدا لي أن كل ما جرى بعد ذلك خلال الصيف جاء ليؤكد خزينًا: «نحن فقط» مَنْ هُم على هذه الشاكلة.

ماتت جدتي بسبب انسداد رئوي في بداية تموز. لم أشعر بأي شيء. بعد عشرة أيام، اندلع عراك عنيف في حي «لاكُوزدُورِي» بين ابن خال لي، وهو متزوج حديثًا، وعمته، أخت والدتي التي كانت تعيش في بيت جدتي. في الشارع، وأمام أنظار الجيران وتشجيعات خالي جوزيف، والده الذي كان

جالسًا هناك في المنحدر، أشبع ابن خالي عمتَه ضربًا وركلاً. ظهرتْ فجأةً بالبقالة وهي تنزفُ وكلها كدمات زرقاء. رافقتْها والدتي إلى الدرك وأخذتْها إلى الطبيب (سيصدر حكم في القضية بعد بضعة أشهر).

جَرْجَرْتُ معي زكامًا مصحوبًا بالسعال طيلة ذلك الشهر. في لحظة ما، انسدَّت أذني اليمنى. لم يكن من عاداتنا استدعاءُ الطبيب من أجل زكام في الصيف. لم أعد أسمع صوتي، وكانت أصواتُ الآخرين مُضَبَّبةً. كنتُ أتحاشى الحديثَ. ظننتُ أنني سأحيى هكذا إلى الأبد.

في تموز دائمًا، وغير بعيد عن أحداث شارع «لاكُورْدُورِي»، اشتكيتُ، في إحدى الليالي ونحن على المائدة بعد إغلاق المقهى، من ذِراعَيْ نظاراتي غير المتساويتين. وبينما كنتُ أحاول إصلاحَهما، انتزعت مني أمي النظارات ورَمتْها بكل قوتها على أرض المطبخ وهي تصرخ. تهشم زجاجُها. يستحيل عليَّ تذكر شيء آخر غير الصخب.. صخب اللوم المتبادل بين والديَّ، وصخب نحيبي.. وذلك الإحساس بأن الكارثة يجب أن تواصل مسارها.. شيء شبيه بـ«إننا نتخبط فعلاً في الجنون الآن».

للعار هذه الخاصية: يعتريكَ الانطباعُ بأن كل شيء قد يحدث.. أن الحوادثَ لن تتوقف.. أن العارَ يلزمُه مزيدٌ من العار.

بعد مرور بعض الوقت على وفاةِ جدتي والاعتداءِ الذي تعرضتْ له خالتي، ذهبتُ بصحبة أمي إلى «إترونا»[1] في الحافلة لقضاء اليوم الصيفي المعتاد على شاطئ البحر. ذهبتْ وعادتْ بلباس الحداد ـ فقط على الشاطئ ارتدتْ فستانَها الأزرق المزين بالزهور الحمراء والصفراء ـ وذلك «لتفادي كلام الناس في «إ»». وأظهرُ في صورة أخذتْها لي ـ وقد ضاعت أو تم تمزيقها عن عمد قبل حوالي عشرين سنة ـ والماء يصل إلى ركبتي، وفي عمقها تبدو صخرة وبوابة «أفال»[2]. كنتُ مستقيمةً. الذراعان ممدودتان على طول الجسد، أحاول إدخال بطني وإبراز صدري الغائب وأنا ملفوفةٌ في لباس السباحة المصنوع من الصوف المحبوك.

خلال فصل الشتاء، سَجلتْنا أمي ـ أبي وأنا ـ للمشاركة في رحلة منظمة من طرف شركة المدينة للحافلات. كانت خطة السفر تشملُ التوجهَ إلى «لورد» ـ مع زيارة بعض المواقع السياحية في الطريق: روكامادور، مغارة باديراك[3].. إلخ ـ

---

(١) «إتروتا» (ETRETAT) مدينة سياحية فرنسية تقع في شمال غرب فرنسا، على بعد ٢٥ كلم من «الوهافر».

(٢) «صخرة أفال» و«بوابة أفال» (AIGUILLE ET PORTE D'AVAL)، صخرة ضخمة وقوس صخري مشهور على ساحل «إتروتا».

(٣) «روكامادور» (ROCAMADOUR) و«باديراك» (PADIRAC)، بلدتان سياحيتان في وسط جنوب فرنسا.

والبقاء فيها ثلاثة أو أربعة أيام، ثم العودة صعودًا نحو نورموندي عبر مسار مختلف عن الأول: بياريتز، بوردو، قصور وقلاع منطقة «لوار». إذن جاء دورنا، أبي وأنا، للذهاب إلى «لورد». في الصباح الباكر يوم الانطلاق ـ كان ذلك في النصف الثاني من أغسطس، والنهار لم يطلع بعد ـ انتظرنا طويلاً على رصيف شارع الجمهورية الحافلةَ القادمة من مدينة شاطئية صغيرة حيث أقلَّت بعض المشاركين في الرحلة. سارت بنا الحافلةُ طيلة اليوم مع التوقف في مقهى للإفطار صباحًا، بـ«درو»[1]، ثم، في منتصف النهار، بمطعم على ضفاف نهر «لواري» ببلدة «أوليفي». أخذتْ تمطر بدون توقف، ولم أعد أرى شيئًا عبر زجاج النافذة. خدشتُ أصبعي وأنا أحاول تكسير قطعة سكر لأعطي نصفها لكلب في مقهى «درو»، وأخذ الخدشُ يتعفن. كلما أوغلنا في الجنوب أخذ الاغتراب يغمرني. وبدا لي أنني لن أرى أمي ثانية.

ماعدا صانع للبيسكوت وزوجته، لم نكن نعرف أحدًا. بلغنا مدينة «ليموج»[2] ليلاً، ونزلنا بالفندق «العصري». خلال العشاء، جلسنا لوحدنا حول مائدة بوسط صالة الطعام. لم نكن

(١) «درو» (DREUX)، مدينة تقع غرب باريس على بعد حوالي ٨٠ كلم.

(٢) «ليموج» (LIMOGES) مدينة فرنسية تبعد عن باريس بحوالي ٤٠٠ كلم إلى الجنوب.

نجرؤ على الحديث بسبب النُدّل. كانت الرهبةُ تَشُلُّنَا، ونحن نتخبط في التوجس.

منذ اليوم الأول احتفظ المسافرون بالمقاعد التي احتلوها عند الانطلاق، ولم يغيروها حتى نهاية الرحلة (هذا سَهَّلَ عليَّ مهمةَ تَذَكُّرِهِم). في الصف الأول إلى اليمين، أمامنا مباشرة، كانت تجلس فتاتان تنتميان إلى عائلة من الصَّاغة تقيم بـ«إ». خلفنا كانت تجلس أرملةٌ، من ملاك الأراضي، مع ابنتها ذات الثلاثة عشر عامًا وتتابع دراستها في مؤسسة دينية بـ«روان». في الصف الذي يليهما، تجلس أرملةٌ متقاعدة من البريد، تقطن بـ«روان» أيضًا. بعدها، معلمةُ لائكية، عازبةٌ، وبدينةٌ، ترتدي معطفًا بنيًا وصندلاً خفيفًا. في الصف الأول إلى اليسار، صانعُ البيسكوت وزوجته، ثم بعدهما رجل وزوجته وهما من تجار الأقمشة، قادمان من المدينة الشاطئية الصغيرة، ثم الزوجتان الشابتان لسائقَيْ الحافلة، وثلاثة أزواج من المزارعين. كانت هذه أول مرة نختلط فيها عن قرب، وطيلة عشرة أيام، بغرباء، كانوا جميعهم، باستثناء السائقَيْن، أفضل منا.

في الأيام التالية، انحسر عني ذلك الألمُ الذي سببه لي ابتعادي عن البيت. أخذتُ أستمتع باكتشاف الجبالِ، وحرارةٍ لا يمكن تخيلها في منطقة «نورموندي».. بالأكل في المطاعم ظهرًا ومساء.. بالنوم في الفنادق. كان الاغتسالُ بالماء البارد والساخن في المغسل رفاهيةً بالنسبة إلي. كنتُ أعتبر ـ كما سأفعل طيلة إقامتي في منزل والديَّ، ولعل هذا الأمر من خصائص الانتماء

إلى العالم الأدنى - أن «العيش في الفندق أجمل من الحياة في بيتنا». عند كل مرحلة، كنت أتشوق إلى رؤية الغرفة الجديدة. كان يمكن أن أقضي فيها ساعات طوال، دون فعل أي شيء، فقط أظل فيها هكذا.

واصل والدي توجُّسَه من الجميع. كان، طيلة الرحلة، ينظر إلى الطريق، التي كانت وعرة في أغلبها. وبدا مُرَكِّزًا على تصرفات السائق أكثر من المناظر الطبيعية. كان يزعجه التغيير المستمر للأَسِرَّة. كان الطعام شأنًا مهمًا جدًا بالنسبة إليه، وبدا حذرًا اتجاه كل ما كان يقدم لنا في الصحون ولا نعرفه. كان يُقَيِّم بصرامة جودةَ الأطعمة المعتادة، مثل الخبز والبطاطس، التي كان يزرع في حديقته. خلال زيارات القصور والكنائس، كان يظل في الصفوف الخلفية، كأنه يؤدي واجبًا ثقيلاً فقط لإرضائي. لم يكن مرتاحًا. بمعنى، لم يكن يمارس نشاطًا ولا كان بصحبة أناس يناسبون أذواقه وعاداته.

أخذ يشعرُ بالارتياح بعد أن تعرَّفَ على المتقاعدة في البريد وصانع البسكوت وتاجر الأقمشة، الذين كانوا يميلون للحديث أكثر من الأعضاء الآخرين في المجموعة، والذين كانت له معهم اهتمامَاتٌ مشتركةٌ مثل الضرائب، إلخ. وهذا بغض النظر عِن الاختلافات البارزة بينه وبينهم: أَيْديهم كانت بيضاء.

كلُّهم أكبر سنًا من والدي، ولم يأتوا، مثله تمامًا، للتعب مشيًا تحت الشمس. بالتالي كانوا يطيلون الجلوس حول المائدة. كان الحديث يدور حول الجفافِ الذي ضرب المناطق التي

عبروا منها، عددِ الشهور بدون مطر، لكنةِ أهل الجنوب، وكل ما هو مختلف عنا، فضلاً عن جريمة «لورس»[1].

اعتقدتُ أنه من الطبيعي أن أسعى لِصُحْبة الفتاة ذات الثلاثة عشر عامًا، إليزابيث. فلم يكن بيننا سوى عام واحد، وكانت هي الأخرى تدرسُ في مدرسة دينية، وإن كانت في السنة الثانية إعدادي. كنا بالطول نفسه، ولكن كان لها جدع نافر يضفي عليها من الآن صور فتاة شابة. في اليوم الأول لاحظتُ بسرور أننا نرتدي معًا تنورةً زرقاءَ داكنةً بِطَيَّات، وسترةً.. حمراءَ عندها وبرتقاليةً عندي. حاولتُ التقرب منها لكنها لم تتجاوبْ معي، مكتفيةً بالابتسام عندما أُحَدِّثُها، تمامًا مثل والدتها التي ينفتح فمها على عدة أسنان ذهبية، والتي لم تتحدثْ أبدًا مع أبي. في أحد الأيام، ارتديتُ اللباس الرياضي (تنورة وقميص) الذي كان يجب التخلي عنه بعد مرور مهرجان الشباب. انتبهتْ إلى ذلك: «شاركتِ في مهرجان الشباب؟» قلتُ نعم بِزَهْوٍ، واعتبرتُ جملتَها المحفوفة بابتسامة نوعًا من التواطؤ بيننا. بعدها، وبسبب الرنة الغربية لكلامها، أحسستُ أنها تعني «أَلَمْ تجدي شيئًا آخر ترتدينه غير هذا اللباس الرياضي!».

مرة، التقطتُ هذه الكلماتِ من فم سيدة من المجموعة:

---

(١) «جريمة لورس» (CRIME DE LURS)، حدث هز فرنسا في أغسطس ١٩٥٢، بعد أن عثر على ثلاثة بريطانيين (السيد دروموند وزوجته وابنته) مقتولين على قارعة الطريق في بلدة «لورس» بجنوب شرق فرنسا.

«فيما بعد، ستكونُ غايةً في الجمال». ثم انتبهت إلى أنها لم تكن تعنيني بل كانت تقصد إليزابيث.

لم يكن واردًا البتة أن أختلط بالفتاتين من عائلة الصاغة. لم أبلغ بعد مستوى الاختلاط بالأجساد الأنثوية الحاضرة في الرحلة، فأنا مجرد طفلة في طور النمو، طويلة، ذات جسدٍ مسطح وبنيةٍ قوية.

بعد الوصول إلى «لورد» أُصِبْتُ بمرض غريب. كنتُ أرى المنازلَ والجبالَ وكلَ المناظر الطبيعية تدور حولي بلا توقف. لما أكون على المائدة بمطعم الفندق، كان الجدار المقابل بالشارع «يمر» أمام عيني باستمرار. فقط الأماكن المغلقة هي التي لم تكن تتحرك. لم أكشف الأمر لأبي. اعتقدتُ أنه الجنون، وأنني سأظل على هذه الحال إلى النهاية. كنتُ أتساءلُ، كل صباح عندما أَسْتَيْقِظُ، إن كان المشهدُ بالخارج قد توقف أخيرًا. أظن أنني اسْتَعَدْتُ حالتي الطبيعية في «بياريتز».

أَدَّيْنَا، أبي وأنا، ما كان بذمتنا من تمارين الورع والعبادة التي قررتْها أمي: موكب المشاعل، القداس الأكبر بالهواء الطلق ونحن واقفان تحت الشمس ـ كاد يغمى عليَّ.. أسعفتني سيدة بكرسيها المطوي ـ الصلاة في الكهف ذي الخوارق. يستحيل عليَّ القولُ إنْ وجدتُ هذه الأماكن، التي تذكرها المدرسة الدينية وأمي بحماس، جميلةً. لم يعترني أي شعور وأنا هناك.

فقط ذكرى الإحساس بالضجر في صبيحةٍ رماديةٍ على طول نهر «الغاف».

زرنا، بصحبة المجموعة، القلعة المحصنة، و«كهوف بِثَارَام»[1] وشاهدنا لوحة تستعيد ما كان عليه الحال إبان فترة «برناديت سوبيروس»[2]، على قطعة قماش كبيرة: الـ«بانوراما»[3]. كنا الوحيدين، مع المتقاعدة من البريد، الذين لم نذهب إلى سيرك «غافارني» أو إلى «جسر إسبانيا». فهاتان الزيارتان لم تكونا ضمن ثمن الرحلة، ولم يكن أبي يحمل معه بلا شك ما يكفي من مال (أَتَذَكَّرُ اَضطرابَه، بشرفة مقهى بـ«بياريتز» لما عَلِمَ بثمن الكونياك الذي شرب للتو مع التاجرين الآخرَيْنِ).

---

(١) «كهف بثارام» (GROTTES DE BETHARAM)، كهف شهير بجنوب فرنسا على بعد حوالي ١٠ كلم من مدينة «لورد» المشهورة بمزاراتها الدينية.

(٢) «برناديت سوبيروس» (BERNADETTE SOUBIROUS) (١٨٤٤ - ١٨٧٩) فتاة فرنسية تقول إن مريم العذراء ظهرت لها ١٨ مرة بين شهري شباط وتموز ١٨٥٨، فتحولت إلى راهبة، رفعتها الكنسية الكاثوليكية إلى مرتبة القديسة في عام ١٩٣٣.

(٣) «البانوراما» (LE PANORAMA DE NOTRE DAME DE LOURDES) لوحة تشكيلية ضخمة (طولها ١٢٥م وعلوها ١٦م) جسّدها فيها الرسام الفرنسي «بيير كاريي - بلوز» (PIEREE CARRIER-BELLEUSE) ظهور مريم العذراء للفتاة «برناديت سوبيروس»، وعرضها عام ١٨٨١، وظلت في مكانها هذا إلى أن تم إزالتها في ١٩٥٦.

لم نحصل على أي شرح مفصل لما سيجري في الرحلة. كانت هناك أشياء كثيرة لم نعرف كيف نتعامل معها.

كان بحوزة الفتاتين المنتميتين لعائلة الصاغة دليلٌ سياحي، تُشْهِرَانِه عند النزول من الحافلة لزيارة أحد المعالم. كانتا تُخرجان من حقيبتَيْهِما الشاطئيتين بعض الشكولاطة والبيسكوت. باستثناء قارورة الكحول المصنوع من النعناع والسكر، تحسبًا لأي طارئ صحي، لم نأخذ معنا أي شيء صالح للأكل، ظنا منا أن ذلك تصرفٌ غير لائق.

كان لديَّ حذاءٌ واحد، أبيضُ.. ذاك الذي حصلتُ عليه بمناسبة تجديد القربان المقدس. وقد اتسخ بسرعة. لم تعطني أمي ذلك المحلول الخاص بتبييضه. لم تخطر ببالنا فكرة شرائه كأن ذلك أمرٌ مستحيلٌ في مدينة غريبة حيث ينبغي لنا البحث عن متجر.

مساء أحد الأيام بـ«لورد»، رأيتُ الأحذيةَ أمام أبواب الغرف، فوضعتُ حذائي أيضًا. وجدته في اليوم الموالي متسخًا كما تركته، فسخر مني أبي: «قلتها لك.. يجب الدفع مقابل ذلك». يستحيل تصور أمر كهذا عندنا.

لم نقتنِ سوى بعض الميداليات وبعض البطائق البريدية لإرسالها إلى أمي، والأقارب وبعض المعارف. لم نقتنِ أي صحيفة باستثناء «Le Canard enchainé» في أحد الأيام. لم تكن يوميات المناطق التي عبرناها تنشر أخبار منطقتنا.

في «بياريتز»، لم يكن لدي لباس سباحة ولا حتى شورط.

اكتفينا بالمشي على الشاطئ بملابسنا وأحذيتنا وسط الأجساد المرتدية لـ«البيكيني» وقد لفحتها الشمسُ.

في «بياريتز» دائمًا، وبشرفة مقهى كبير، انطلق أبي في سرد قصة داعرة نوعًا ما عن أحد الرهبان، التي سبق لي أن سمعته يرددها عندنا في البيت. رد الآخرون بضحكة مفتعلة.

ثلاث صور من رحلة العودة:

ـ خلال توقف الحافلة في سهل أحمر التربة به حشائش أحرقتها الشمس ـ لعل ذلكِ كان في منطقة «أُوفِيرْنْ»[١] ـ كنتُ قد فرغت للتو من التبرز بعيدًا عن المجموعة التي استقرت بمقصف.. فكرت أنني وضعت شيئًا مني في مكان لن أعود إليه أبدًا على الأرجح. بعد قليل.. غدًا، سوف أكون بعيدة، سوف أستأنف الدراسة، وسيظل ذلك الشيء، لأيام، إلى غاية حلول فصلِ الشتاء، مهملاً هناك على ذلك السهل القاحل.

ـ في سلالم قلعة «بلوا»، كانت تنتاب أبي، الذي أَلَمَّتْ به نزلة برد، نوباتُ سعال لا يقوى على التحكم فيها. كان الجميع لا يسمع سوى سعاله الذي يتردد صداه تحت القباب فيطغى على كلام المرشد السياحي. كان يتعمد التأخر عن المجموعة التي وصلت إلى أعلى السلالم. كنت ألتفت إليه وأتوقف منتظرةً، على مضض في الغالب.

---

(١) «أوفيرن» (AUVERGNE)، منطقة بوسط فرنسا.

ـ في المساء الأخير للرحلة، بـ«تور»[1]، تناولنا العشاء في مطعم جدرانُه مرصعةٌ بالمرايا، وذي إنارة رائعة، يرتاده زبائن غاية في الأناقة. كنا، أبي وأنا، نجلس في الطرف الأقصى من مائدة المجموعة. كان النُّدُل يُهْمِلُونَها، وكنا ننتظر طويلاً بين الطبق والآخر. في مائدة قريبة منا، كانت تجلس فتاةٌ ذات أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا، ترتدي فستانا مفتوح الصدر، ولها بشرة مشبعة بالشمس، وبرفقتها رجل متقدم في السن، يبدو أنه أبوها. كانا يتحدثان ويضحكان بتلقائية وحرية، ولا يكترثان بالآخرين. كانت تستمتع بتذوق ما يشبه حليبًا ثقيلاً في إناء زجاجي. بعد سنوات قليلة، أدركتُ أنه «الياووغت» (الزبادي)، الذي كان مجهولاً لدينا آنذاك. رأيتُنِي في المِرآة التي أمامي: شاحبة، حزينة بنظاراتي، صامتة إلى جانب والدي، الذي كان ينظر إلى الفراغ. كنتُ أرى كل ما يفصلني عن تلك الفتاة، ولا أرى كيف يمكنني أن أشبهها.

اشتكى أبي فيما بعد، بحدة غير معتادة، من هذا المطعم حيث قدموا لنا بطاطس مهروسة مهيئة من «بطاطس الخنازير».. كانت بيضاء وبلا طعم. وظل يشعر باستياء عميق، حتى بعد مرور أسابيع عديدة، من هذا العشاء الذي قُدِّمَت لنا فيه «بَطاطس الخنازير». وهي طريقته ـ ولعلي بدأت، في تلك

(١) «تور» (TOURS)، مدينة تبعد عن باريس بـ٢٤٠ كلم في اتجاه الجنوب الغربي.

اللحظة، أعرف كيف أفكك شيفرته ـ ليكشف دون أن يفصح عن الإهانة التي تعرضنا لها.. عن معاملتنا باحتقار فقط لأننا لسنا من الزبائن الراقين.

(لعلني كنت أميل، بعد كل صورة من صور ذلك الصيف، إلى كتابة «إذاك اكتشفتُ أن» أو «أدركتُ أن»، ولكن مثل هذه الكلمات تفترض وجودَ وعيٍ واضحٍ بالمواقف التي يتعرض لها المرء. كان هناك، فقط، الشعور بالعار الذي رَسَّخَهَا وجعلها خارج نطاق أي معنى. ولم يكن هناك بد من أن يداهمني هذا الشعور.. هذا الاختناق.. هذا الانسحاق. فهو الحقيقة النهائية...

الحقيقة التي تجمع بين فتاة ٥٢ وهذه المرأة المنهمكة في الكتابة.

باستثناء «بوردو» و«تور» و«ليموج»، لم أعد إلى أي من الأماكن التي زُرْنا خلال تلك الرحلة.

تظل صورة مطعم «تور» الأكثر وضوحًا. لما كنتُ أعكف على تأليف كتاب حول حياة والدي وثقافته، كانت تعاودني باستمرار كبرهان على وجود عالمين، وعلى انتمائنا الأكيد إلى الأدنى.

لعل العلاقة الوحيدة التي تربط بين ذلك الأحد من حزيران وهذه الرحلة هي التراتبية الزمنية. ولكن، هل يمكن حقًا التأكد من أن حادثًا سابقًا لا يلقي بظلاله على الطريقة التي نعيش بها حادثًا لاحقًا.. أنَّ تعاقبَ الوقائع خال من أي دلالة؟.

بعد العودة، ظللتُ أفكر باستمرار في تلك الرحلة. أعود إلى غرف الفنادق، والمطعم، وأزقة تلك المدن المشمسة. أدركت وجود عالم آخر، شاسع، بشمس حارقة، وغرف بمغاسل فيها الماء الساخن، وفتيات يتحدثن مع آبائهن كما في الروايات. لم نكن ننتمي إلى ذلك العالم. هذا كل ما في الأمر.

أظن أنني شرعتُ، إبان ذلك الصيف، في لعبة «اليوم المثالي».. طقس يومي كنت أمارسه انطلاقًا من محتويات «Le Petit Echo de la mode» - الأكثر غنى من حيث الإعلانات بين كل الصحف والمجلات التي كنا نشتري - بعد قراءة المسلسلات وبعض الأركان الأخرى.

الطريقة نفسها دائمًا. كنت أَتَخَيَّلُنِي فتاةً شابة، أعيش وحيدة في بيت واسع جميل (تنويع: وحيدةً في غرفة بباريس). وكنت أشكل جسدي ومظهري انطلاقًا من كل المنتوجات التي تُرَوِّجُ لها المجلة.. أسنان جميلة (مع معجون الأسنان «GIBBs»).. شفتان حمراوان وممتلئتان (أحمر الشفاه «Baiser»).. قوام رشيق (مشد التخسيس X).. إلخ. كنت أرتدي فستانًا أو «تايورًا» يقترحُ الإعلانُ اقتناءَه بالمراسلة.. أثاثي كان من محلات «Barbes». دراستي كانت في التخصصات التي تعتبرها جمعية «Ecole Universelle»[1] ذات آفاق واعدة. لم أكن أتناول سوى الأطعمة

(١) «ECOLE UNIVERSELLE» (لعل الترجمة الأنسب هي «المدرسة الشاملة») منظمة فرنسية تعمل على توفير التعليم والتكوين بالمراسلة=

المعلن عن فوائدها: المعجنات، زبدة «Astra». كنت أجد متعة كبيرة في خلقِ نفسي من المنتوجات التي تظهر تدريجيًا في المجلة، وهي قاعدة كنتُ صارمةً في الالتزام بها. بِرَوِيَّة، كنتُ آخذ وقتي في استثمار كل «إعلان»، وتركيب الصور، وترتيب حكاية يوم مثالي. ويتجلى، مثلًا، في الاستيقاظ وأنا على سرير «Lévitan»، الإفطار بشكولاطة الـ«Banania»، تصفيف «خصلاتي الرائعة» بالـ«Vitapointe»، مراجعة دروسي التي أتلقاها بالمراسلة في التمريض أو المساعدة الاجتماعية.. إلخ.

وكان تَغَيُّرُ الإعلانات، من أسبوع إلى أخر، يبث نفحة من التجديد في هذه اللعبة التي كانت ـ على عكس انجراف الخيال الذي يعقب قراءة الروايات ـ نشيطةً، وحماسيةً (كنت أصنع المستقبل بأشياء حقيقة) ومحبطةً لأنني لم أفلح قط في وضع برنامج يوم كامل.

كان نشاطًا سريًا، بلا اسم، ولم يخطر ببالي أبدًا أن بإمكان الآخرين ممارسته.

ساءت، فجأة، الأنشطةُ التجارية لوالديَّ في أيلول، فقد فُتِح متجر لـ«Coop» وآخر لـ«Familistère» بمركز المدينة. وكانت رحلة «لورد» مكلفة جدًا بلا شك. كان والداي يتهامسان في

=للفئات التي لم تستطع لسبب أو لآخر مواصلة التعليم النظامي، تأسست في ١٩٠٧، وكان لها إشعاع طيلة القرن الماضي تقريبًا.

المطبخ، بعد الظهر. في يوم من الأيام، ألقت أمي باللوم علينا ـ أبي وأنا ـ لأننا لم نؤد صلاتنا بشكل جيد في الكهف. انفجرنا ضحكًا، فاحمرت وجنتاها، كأنها أفشت علاقة سرية مع السماء لم يكن بمقدورنا استيعابها. كانا يعتزمان بيع البقالة والمقهى والبحث عن عمل كبائعين في متجر للأغذية أو العودة إلى المصنع. ولكن كل هذا لم يحدث لأن الوضع تحسن فيما بعد، على ما يبدو.

عند نهاية الشهر، عانيتُ من ألم سِنٍّ مسوسة، فأخذتني أمي لأول مرة عند طبيب الأسنان بـ«إ». قبل أن يطلق تيار ماء بارد على اللثة لإعدادها للحقنة، سألني: «هل تشعرين بالألم عند تناول شراب التفاح؟». كان هذا هو شراب المائدة لدى العمال والقرويين، كبارًا وصغارًا. في البيت، كنت أشرب الماء مثل تلميذات الداخلية بالمدرسة الخاصة، ويكون في بعض الأحيان ممزوجًا بشراب الرمان. (ألَمْ تَعُدْ تفلتُ مني، إذن، أيُّ جملة تشير إلى وضعنا الاجتماعي؟)

في الدخول المدرسي، كنا ـ تلميذتان أو ثلاث ـ مُنهمكات في تنظيف القسم، يوم سبت بعد انتهاء الحصص، بصحبة السيدة «ب»، مُدَرِّسة السنة أولى أعدادي. وفي غمرة الألفة مع خِرق التنظيف، أخذتُ أصدح بأغنية حب ـ «بوليرو» ـ ثم توقفت بسرعة. رفضتُ مواصلة الغناء رغم إلحاح السيدة «ب».

كنتُ مقتنعةً أنها تنتظر فقط أن أكشف عن «طابعي السوقي» لإدانتي بشدة.

لا حاجة إلى الاستمرار. فالعار محض تكرار وتراكم.

صار كل شيء في حياتنا رمزًا للعار: المِبْولُ في الفناء، الغرفةُ المشتركة ـ حيث كنت أنام إلى جانب والديَّ، تبعا لعادة منتشرة في وسطنا بسبب ضيق المكان ـ صفعاتُ أمي وكلامُها البذيء، الزبائن السكارى، الأسرُ التي تتبضع بالسَّلَفِ.

معرفتِي الدقيقةُ بدرجات السُّكْر، وبنهاياتِ الشهر الصعبةِ المتميزة باستهلاك لحم البقر المعلب كانت لوحدها كافية لتحديد انتمائي إلى طبقة لا تحظى سوى بالتجاهل والازدراء من طرف المدرسة الخاصة.

كان من الطبيعي الشعور بالعار، كأنه عاقبةٌ مكتوبةٌ في ثنايا مهنة والديَّ، في طيات مصاعبهم المالية، في ماضيهم العُمَّالي، في طريقة عيشنا، في مشهد ذلك الأحد من حزيران. صار الإحساس بالعار نمطَ حياة بالنسبة إلي. حتى أنني لم أعد أنتبه إليه. إنه يسكن هذا الجسد.

كنت دائمًا أرغب في تأليف كتبٍ يستحيل عليَّ الحديث عنها فيما بعد.. كُتُبٍ يستحيل معها تَحَمُّلُ نظرة الآخر. ولكن هل يمكن للكتابة أن تجلب لي عارًا في مستوى ذلك الذي أحسسته في عامي الثاني عشر؟

ها هو صيف ١٩٩٦ يُشَارِف نهايتَه. لما راودتني فكرةُ كتابة هذا النص، هَوتْ قذيفةٌ على سوق «سراييفو»، مخلفة عشرات القتلى ومئات الجرحى. في الصحف، كتب بعضهم: «العار يخنقنا». بالنسبة إليهم، العار فكرة يمكن أن تخطر ببالنا في يوم، ونتخفف منها في اليوم الموالي.. يمكن استحضارُها بخصوص هذا الوضع (البوسنة) وإغفالُها بخصوص وضع آخر (رواندا). وها قد نسي الجميع سريعًا الدمَ المُراقَ في سوق سراييفو.

خلال الشهور التي عكفتُ فيها على تأليف هذا الكتاب، كنتُ يقظة اتجاه كل الأحداث التي يقال إنها وقعت في ١٩٥٢ (كيف ما كانت: ظهور فيلم، صدور كتاب، وفاة فنان.. إلخ). كانت تلك الأحداث تبدو لي برهانا على حقيقة تلك السنة البعيدة، وحقيقةِ كياني كطفلة. في كتاب لـ«شوهي أوكا»[(١)] صدر في اليابان في ١٩٥٢ تحت عنوان «النيران»، قرأتُ: «لعل كل هذا مجردَ وهمٍ، ولكن ما أحسستُ به لا يرقى إليه الشك أبدًا. فالتَّذَكُرُ في حد ذاته تجربة».

أنظر إلى صورة «بياريتز». أبي مات منذ تسعة وعشرين عامًا. لَم يعد يربطني شيء بفتاة الصورة اللَّهُمَّ إلاَّ مشهد ذلك الأحد

(١) «شوكي أوكا» (SHOHEI OOKA) (١٩٠٩ ـ ١٩٨٨)، من أهم الكتاب اليابانيين في القرن العشرين

من حزيران، الذي تغلغل في ذهنها، والذي دفعني إلى تأليف هذا الكتاب، لأنه لم يغادرني قط. فهو وحده ما يجمعنا، تلك الفتاةَ الصغيرةَ وأنا.. أما «الأوركازم» الذي أحسستُ فيه أكثر بهويتي وبدوام كياني، فلن أختبره سوى بعد مرور سنتين.

تشرين أول ١٩٩٦

الفهرس

إهداء ٥
تقديم ٩

هذا الكتاب

كنتُ دائمًا أرغب في تأليف كتبٍ يستحيل عليَّ الحديث عنها فيما بعد.. كُتُبٍ يستحيل معها تَحَمُّلُ نظرة الآخر. ولكن هل يمكن للكتابة أن تجلب لي عارًا في مستوى ذلك الذي أحسسته في عامي الثاني عشر؟

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9933354770
9 789933 354770

